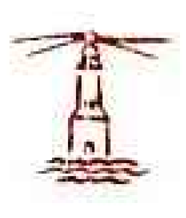
مصطفى محمود

أناشيد الإثم والبراءة



دار المعارف

مصطفى محمود

أناشيد الإثم والبراءة

الطبعة الثانية



دار المعارف

الحب ما هو؟

لو سألنى أحدكم . . ما هى علامات الحب وما شواهده لقلت بلا تردد أن يكون القرب من المحبوبة أشبه بالجلوس فى التكييف فى يوم شديد الحرارة وأشبه باستشعار الدفء فى يوم بارد . . لقلت هى الألفة ورفع الكلفة وأن تجد نفسك فى غير حاجة إلى الكذب . . وأن يرفع الحرج بينكما ، فترى نفسك تتصرف على طبيعتك دون أن تحاول أن تكون شيئًا آخر لتعجبها . . وأن تصمتا أنتما الاثنان فيحلو الصمت وأن يتكلم أحدكما فيحلو الإصغاء . . وأن تكون الحياة معًا هى مطلب كل منكما قبل النوم معًا . . وألا يطفئ الفراش هذه الأشواق ولا يورث الملل ولا الضجر وإنما يورث الراحة والمودّة والصداقة . . وأن تخلو العلاقة من التشنج والعصبية والعناد والكبرياء الفارغ والغيرة السخيفة والشك الأحمق والرغبة فى التسلط ؛ فكل هذه الأشياء من علامات الأنانية وحب النفس وليست من علامات حب الآخر . . وأن تكون

السكينة والأمان والطمأنينة هى الحالة النفسية كلما التقيتما .

وألّا يطول بينكما العتاب ولا يجد أحدكما حاجةً إلى اعتذار الآخر عند الخطأ ، وإنما تكون السماحة والعفو وحسن الفهم هى القاعدة . .

وألا تشبع أيكما قبلة أو عناق أو أى مزاولة جنسية ولا تعود لكما راحة إلّا فى الحياة معًا والمسيرة معًا وكفاح العمر معًا .

ذلك هو الحب حقًّا .

ولو سألتم . . أهو موجود ذلك الحب . . وكيف نعثر عليه ؟ لقلت نعم موجود ولكن نادر . . وهو ثمرة توفيق إلّهى وليس ثمرة اجتهاد شخصى .

وهو نتيجة انسجام طبائع يكمل بعضها البعض الآخر ونفوس متآلفة متراحمة بالفطرة .

وشرط حدوثه أن تكون النفوس خيّرةً أصلاً جميلةً أصلاً .

والجمال النفسى والخير هو المشكاة التى يخرج منها هذا الحب .

وإذا لم تكن النفوس خيرةً فإنها لا تستطيع أن تعطى فهى أصلاً فقيرة مظلمة ليس عندها ما تعطيه .

ولا يجتمع الحب والجريمة أبدًا إلّا فى الأفلام العربية السخيفة المفتعلة . . وما يسمونه الحب فى تلك الأفلام هو فى حقيقته شهوات ورغبات حيوانية ونفوس مجرمة تتستر بالحب لتصل إلى أغراضها .

أما الحب فهو قرين السلام والأمان والسكينة وهو ريح من الجنة ،

أما الذى نراه فى الأفلام فهو نفث الجحيم .

وإذا لم يكن هذا الحب قد صادفكم وإذا لم يصادفكم منه شىء فى حياتكم فالسبب أنكم لستم خيّرين أصلاً فالطيور على أشكالها تقع والمجرم يتداعى حوله المجرمون والخير الفاضل يقع على شاكلته . .

وعدل الله لا يتخلّف فلا تلوموا النصيب والقدر والحظ وإنما لوموا أنفسكم .

وقد يمتحن الله الرجال الأبرار بالنساء الشريرات أو العكس وذلك باب آخر له حكمته وأسراره .

وقد سلّط الله المجرمين والقتلة على أنبيائه وامتحن بالمرض أيوب وبالفتنة يوسف وبالفراعين الغلاظ موسى وبالزوجات الخائنات نوحًا ولوطًا .

وأسرار الفشل والتوفيق عند الله . . وليس كل فشل نقمة من الله .

وقد قطع الملك هيرودوس رأس النبى يوحنّا المعمدان وقدمها مهرًا لبغى عاهرة .

ولم يكن هذا انتقاصًا من قدر يوحنّا عند الله . . وإنما هو البلاء .

فنرجو أن يكون فشلنا وفشلكم هو فشل كريم من هذا النوع من البلاء الذى يمتحن النفوس ويفجر فيها الخير والحكمة والنور وليس فشل النفوس المظلمة التى لا حظّ لها ولا قدرة على حب أو عطاء .

ونفوسنا قد تخفى أشياء تغيب عنّا نحن أصحابها . وقد لا تنسجم

امرأة ورجل لأن نفسيهما مثل الماء والزيت متنافرتان بالطبيعة ، ولو كانا مثل الماء والسكر لذابا وامتزجا ولو كانا مثل العطر والزيت لذابا وامتزجا . . والمشكلة أن يصادف الرجل المناسب المرأة المناسبة .

وذلك هو الحب فى كلمة واحدة : التناسب . تناسب النفوس والطبائع قبل تناسب الأجسام والأعمار والثقافات .

وقد يطغى عامل الخير حتى على عامل التناسب فنرى الرسول محمدًا عليه الصلاة والسلام يتزوج بمن تكبره بخمسة وعشرين عامًا ويتزوج بمن تصغره بأربعين عامًا فتحبه الاثنتان خديجة وعائشة كل الحب ولا تناسب فى العمر ولا فى الثقافة بينهما فهو النبى الذى يوحى إليه وهما من عامة الناس .

ونراه يتزوج باليهودية صفية صبيحة اليوم الذى قتل فيه جيشه زوجها وأباها وأخاها وشباب قومها وزهرة رجالهم واحدًا واحدًا على النطع فى خيبر . . يتزوجها بعد هذه المذبحة فنراها تأوى إلى بيته وتسلم له قلبها مشغوفةً مؤمنةً ولم تكد دماء قومها تجف . . فكيف حدث هذا ولا تناسب وإنما أحقاد وأضغان وثارات . .

إنه الخير والخلق الأسمى فى نفس الرسول الكريم ﷺ هو الذى قهر الظلمة وهو الذى حقق المعجزة دون شروط . .

إنه النور الذى خرج من مشكاة هذا القلب المعجز فصنع السحر وأسر القلوب وطوع النفوس حتى مع الفوارق الظاهرة وعدم التناسب

ومع الأضغان والأحقاد والثارات . .

إنما نتكلم نحن العاديون عن التناسب . .

أما فى مستوى الأنبياء فذلك مستوى الخوارق والمعجزات . .

وما زالت القلوب الخيّرة والنفوس الكاملة التى لها حظ من هذا المستوى قادرة على بلوغ الحب وتحقيق الانسجام فى بيوتها برغم الفروق الظاهرة فى السن والثقافة . .

ذلك أن الحب الذى هو تناسب وانسجام بالنسبة لنا نحن العاديين . . هو فى المستوى الأعلى من البشر نفحة وهبة إلٰهية . .

ومن ذا الذى يستطيع أن يقيد على الله نفحاته أو يشترط عليه فى هباته . .

وإذا شاء الله أن يرحم احدًا فمن ذا الذى يستطيع أن يمنع رحمته . .

والحب سر من أعمق أسرار رحمته . .

ولا ينتهى فى الحب كلام . .

أناشيد الإثم والبراءة

الحب

ملفوف أنا بين ذراعيك يا حبيبتى
ذراعاك مسكنى وغرفتى
وصدرك أرجوحتى
وخدّاك وسادتى وبردتى
وعيناك إغفاءتى وراحتى
وكفّاك ظلتى وواحتى
يا ضحكتى ودمعتى
ودميتى ولعبتى
يا وطنى يا أمى يا طفلتى
يا وصلة السر بالسر عند باب الموت والميلاد والمخاض والضنى

صدرك الرحمة والحنان
ويداك الشفاء والغذاء والمودّة
ونفسك السماوات الجميلة
لا تغيب عنها الشمس
ولا تظلم الليل ولا النهار
ولا تغيم فى الليالى الشاتية
تجولت فى العالم وعدت وأنا ما زلت بين شفتيك .
وصعدت إلى السماوات وجاوزت الثريا وأنا . ما زلت أتطلع إلى عينيك
فى حضورك تكلم الصمت
وبين يديك توقف الزمن
وأصبح الماضى والحاضر والمستقبل هو الآن
وهرولت ساعات الآن ثم ذابت كأنها لحظة
وخيل إلينا من شفافية كلماتنا أننا هواء
وخيل إلىّ أنى لا أمسك شيئًا
وأننا تحولنا إلى كلمة
ثم تجردت الكلمة فأصبحت معنى
ثم انتشر المعنى كالعطر وتخلل كل شىء
ذلك هو وجودنا معًا يا حبيبتى
يجعل كل شىء ينطق

يجعل كل شىء ملكًا خاصًا لنا
ويجعل من العالم شقتنا الخاصة
وكأنما ولدنا لتوّنا اليوم
وفتحنا أعيننا على عالم جديد فى كوكب آخر
ومنحنا حياة جديدة نعيشها جديدة كل الجدة
حبيبتى ماذا شربنا . . ؟ !
وماذا سكبت لى فى الكأس
لا شىء سوى قطرات من نور عينيك وذوب قلبك
إلهى . . أيها القادر على كل شىء .
كيف يشرب الناس الخمر . وفى قلوبهم كل هذا الرحيق

المعذرة

حبيبتى . .
برئت من يدى
وبرئت من عينى
وبرئت من فعلى
وبرئت من جلدى
إن كانت النوايا آثمة
وا خوفى من علم ربى بالسرائر ! !

ويلنا ظلمنا نفسنا
هلكنا من اليوم لا نجاة
إن لم نفز بمغفرة
يا ضيعة العمر إن لم نفز بمغفرة
بل لا ييأس من روح الله إلّا الكفرة
ظلمت ربى الغفار الذى وسع كل شيء رحمةً وعلما والذى خلق الضعف
كيف لا يحنو عليه أكثر من حنوّ الأم بالوليد
كيف لا يشفيه من نفسه ويرحمه

الابتهال

إلّهى .. يا منبع جميع الأنوار
ترى من نحب حينما ننظر إلى بعضنا البعض .. ؟ !
وهل نحب إلّا نورك أنت وأثر يديك على الصلصال
وهل يسكرنا إذا سكرنا إلّا نفخة روحك التى نفختها فينا
وهل نطالع فى كل جميل إلّا وجهك
وهل كل يد شافية وكل قبلة رحيمة إلّا ترجمان رحمتك
فكيف يا إلّهى تضلّ بنا الأودية وتتفرق بنا السكك ونخرج من اسمك إلى أسمائنا فنسجن أنفسنا فى هذا الصدر أو نتوه فى ذلك العنق أو

نهاجر فى تلكما العينين وتتسكع أيدينا على نحاس الأضرحة فنلثم الشفاه ويخيل إلينا أننا نذوق خمرك وما نذوق إلّا زجاج الكؤوس التى أودعت فيها ذلك الرحيق الخفى الذى هو سر أسرارك .

ويخيل إلينا أننا بلغنا المنتهى وما بلغنا إلّا لمس الغلاف وتحسس المحارة أما اللؤلؤ داخل المحارة .. والنور المغيب فى شغاف القلوب والسر المودع فى العيون فليس لنا منه إلّا حظّ القرب والمطالعة والاستشراف من بُعد حيث لا وصال ولا اتصال ولا انفصال ولا نوال .. وإنما فى الذروة من الإحساس .. يأتى ذلك الإغماء .. وتلك الغيبوبة الصاحية .. وتلك النشوة الغامرة .. حينما نوشك أن نكون قاب قوسين أو أدنى من لقاء السر بالسر.

ولا سر إلّا سرك وإن تعددت الأسماء وتنوعت المفاتن واختلفت الوجوه .

إنما هو أنت وحدك المحبوب أينما توجه قلب محب .. وأنت وحدك المعبود أينما توجهت نظرات عابد .

وأنت وحدك الرازق وإن تعددت الأيدى التى تعطى .

إنما تستمد جميع المصابيح نورها من نورك .

كل مصباح يأخذ منك على حسب استعداده ويعطى من نورك على حسب شفافيته .

ولكن العطاء فى الأصل منك والجمال منك والنور منك .

سبحانك لا شريك لك .

سبحانك والحمد لك .

سبحانك والحب لك .

سبحانك ما لثمت إلّا أياديك وما قبلت إلّا وجهك . . وما سبحت إلّا لنور عينيك وإن نطقت فى كل مرة اسمًا غير اسمك فإنما هو ضلال اللسان فى القراءة وضلال العين فى الرموز وقراءة الشيطان للشفرة الخطأ . . وإنما هو التخبط فى الحجب ولثم الأضرحة وتقبيل النحاس . . وغفلة الطبع عن الحقيقة .

يارب . . سألتك باسمك الرحمن الرحيم أن تنقذنى من عينى فلا ترينى الأشياء إلّا بعينك أنت وتنقذنى من يدى فلا تأخذنى بيدى بل بيدك أنت تجمعنى بها على من أحب عند موقع رضاك . . فهناك الحب الحق . . وهناك أستطيع أن أقول . . لقد اخترت . . لأنك أنت الذى اخترت . . وأنت الوحيد الذى توثق جميع الاختيارات وتبارك كل الحريات . . أنت الحرية ومنك الحرية وبك الحرية وأنت الحب ومنك الحب وبك الحب .

أنت الحق والحقيقة .

وما عدا ذلك أضرحة ونحاس وخشب وصلصال وحجارة وأهداب وعيون ومحاجر وأوثان تسجد لأوثان .

لا تدعنى يا إلٓهى فى الظلمة ألثم الحجارة وأعانق الصلصال وأعبد الوثن .

بشفة الشيطان لثمت هذه الأشياء وظننت أنها شفتى وبذراعَى الشيطان عانقت وظننت أنهما ذراعاى .

استحلفتك بضعفى وقوتك

وأقسمت عليك بعجزى واقتدارك

إلّا جعلت لى مخرجًا من ظلمتى إلى نورى ومن نورى إلى نورك

سبحانك . . .

لا إلٓه إلّا أنت

لا إله إلّا الله .

بدون خيانة من أحد

تسألنى . . ما الذى أحببته فيك .

سوف تعجب إذا قلت لك إنها تجاعيد جبينك والخطوط الغائرة فى خديك وذلك الحزن القديم فى صوتك والإرهاق المستمر فى عينيك وتلك الخطى المكدودة والكلام القليل والشرود والصمت الحائر وكأنك تحاول أن تمسك بحبال اللا شىء .

إنه الضنى . .

ضنى المشوار الطويل الذى مشيته .

الضنى مجسدًا فى ملامح وصوت وإنسان وقد أحببت فيك هذا الضنى الناطق المعبر .

إنه الإنسانية كلها فى رجل .

وحينما أعطيتك يدى لتحتويها يدك وأعطيتك أسرارى لتفترشها أسرارك . . أدخلتك من لحظتها فى سواد العين وأسكنتك المهجة

وأصبحت أتنفسك مع كل شهيق وزفير وأعيشك مع الفطور وفنجان الشاى وجرائد الصباح وتليفونات الأقارب وصوت المترو وضجيج الميناء .

إنها أيام نادرة . . ذلك اللقاء العابر فى نابولى .

بل هى حالة خاصة جدًّا ونادرة أن يلتقى اثنان كل منهما تجرد من ظروفه وطرح خلفه كل شىء من ماض وهموم وارتباطات ومشاكل ليعطى نفسه خالصةً مجردةً نقيةً للآخر .

إنها لحظات أشبه بماء أعيد تقطيره من شوائبه وأعيد ترشيحه من رواسبه عدة مرات حتى أصبح شفافًا مقطرًا نقيًّا مثل النور المذاب .

وكذلك كانت نشواتنا فى تلك الأيام .

كانت مستخلصةً نقيةً رائعةً صافيةً مثل أشعة الفجر . . وكان طعمها وكأنها من كوكب آخر . . وكأنها من الجنة .

تلك حالة لم أعشها طوال حياتى من قبل . . ولم أعرفها .

ولا أظن أنى سوف أعيشها بعد ذلك أو أعرفها أبدا .

أنت تقول . . كنا نحلم .

وأنا أقول . . بل كل لحظة كانت واقعية . . وكل دقيقة كانت حقيقةً . . وأكاد أشم عطرك فى مناديلى وأكاد أشعر بعرق يديك فى كفى بل كل حياتى قبلها كانت هى الحلم .

وكل حياتك قبلها كانت خيالاً .

وكل الدنيا قبلها كانت وهمًا .

كنت عمياء طول الوقت حتى أبصرتك وكنت وحيدةً حتى صاحبتك وكنت لا آكل ولا أشرب حتى أكلت معك وشربت معك . . وكنت لا أضحك ولا أبكى حتى ضحكت معك وبكيت معك .

لم نكن نحلم إذن ولم يكن ما نعيشه حلمًا بل كان صحوة .

ولكنها كانت مجرد فترة .

كانت مجرد صفحات من كتاب العمر ما لبث أن طوتها يد الأجل التى لا تكف عن الجريان .

وحينما التقينا بعد ذلك فى القاهرة قلت لى ساعتها . . إنك صدمت .

قلت لى إنك تصافح امرأة أخرى . . امرأة تكاد لا تعرفها . . وتكاد لا تعرفك .

واتهمتنى ساعتها بخيانتك . . وبأن هناك رجلاً آخر . . ورميتنى بالغدر والتلون .. وصدقنى لقد رأيت أنا أيضا فيك رجلا آخر لا يكاديعرفنى .. ولا أكاد أعرفه .

ولكن لم يكن فى الأمر خيانة .

وإنما كل ما حدث أن كلاًّ منا عاد إلى جلده والتقى بالآخر مرتديًا مناخ ظروفه الكامل مخنوقًا بمشاكله .

شاركتنا جلستنا على النيل قضية طلاقى من زوجى ومستقبل أولادى ورجل آخر كان يريد أن يتزوجنى ونفقات علاج أمى المريضة بالخارج ، كما شاركنا الجرسون يناديك كل دقيقة لترد على تليفون وتحيات معجبات على الموائد الأخرى عرفن فيك الموسيقار المشهور ، ثم دخول واحدة بعد الأخرى على خلوتنا لتوقع لها فى الأوتوجراف . . ثم مرور أولادك ليشاركونا الشاى . . ثم حكاية زوجتك الأولى ومضايقاتها . . ثم حكاية الفيلم . . ثم . . ثم . . ويومها اختلف كل شىء .

فقدت اطمئنانى كما فقدت أنت اطمئنانك .

شعرت لأول مرة بأنك لست ملكى وإنما لى فيك شركاء عديدون يشاركوننا الجلسة والحديث ثم باقى الليلة وباقى العمر سوف يشاركوننا الطعام والفراش والحياة .

كما شعرت أنت أيضًا بنفس الشىء .

لم تجد تلك المرأة الخالصة التى رأيتها فى نابولى . . وإنما رأيت زحامًا من الناس والمشاكل .

وأنكرتنى . .

وأنكرت نفسك .

وافتقدت ذلك الإحساس النادر بالخلوص والتجرد والنقاء . . كما افتقدته أنا أيضا .

وافترقنا بوجوه فاترة .

وطالت الفرقة .

وأصبحت مكالماتنا على فترات أبعد وأبعد .

وكنت أحس بنبرة الشك فى صوتك .

ولكن صدقنى يا مراد .

أنا لم أخنك مع أحد .

ولم أفكر فى خيانتك .

وإنما الخائن الحقيقى والشريك الذى شاركنا هو الحياة ذاتها بضغوطها وشواغلها وتنوعها وتلونها وحضورها وتكاليفها التى أبهظتنا وخنقت الروح فى داخلنا .

تلك اللحظة المستخلصة المرشحة المقطرة من ذوب نفسى ومن ذوب نفسك لم يعد هناك سبيل إلى استعادتها .

لقد حدث هذا فى لقاء نادر عابر ذات أمسيات شاعرية فى نابولى .

ولم يعد فى الإمكان أن تعود هذه الأمسيات أبدًا وهذا طبع الدنيا .

إن الخيانة كانت فى الدنيا نفسها ولم تكن فينا .

والحكاية أننا سقطنا من كوكب الجنة إلى الأرض فجأةً ولم نعد نقبل تلوث الهواء وتضاغط الزحام وتدافع المناكب وتلاحم الأحقاد والأضغان فى نسيج لقمة العيش المريرة .

كيف نشرب الماء مالحًا بعد أن ذقناه عذبًا فراتًا ؟

كيف نعيش التلوث بعد أن عشنا النقاء ؟

كيف نزحف على بطوننا فى أوحال المشاكل بعد أن كنا نحلّق بأجنحتنا فى فضاء فسيح كله ملكنا ؟

كيف أشعر براحة وأنا أحس بكل شىء حولى يسرقك ويأخذك ويشاركنى فيك ؟

كيف أحبك فى اطمئنان وكل هذه الضوضاء حولك وأضواء الكاميرات حولك وعيون حسناوات عديدات تلمع حولك فى كل صورة . . وكل واحدة تهددنى فى مستقبلى ؟

وأنت .

ماذا كان شعورك وأنت تقرأ خطابات ذلك المجهول الذى يغازلنى ؟ . . وماذا قال لك خيالك وأنت تستمع إلى أولادى يحكون عن أبيهم وكيف كان يحبنى وكيف كنت أحبه ؟ . . ثم ذلك الرجل الذى ينتظرنى منذ عشرين عامًا ويحبنى فى صمت ورهبانية وفداء وينتظر اليوم الذى أكون فيه له .

هل يمكن أن تأخذنى بكل هؤلاء الشركاء وبكل هذه المنغصات التى سوف تسرقنى منك حتى وأنا بين ذراعيك ؟

هل يمكن أن ترضى بالشرود والغياب فى عينى وأنت تقبّلنى ؟

وهل يمكن أن أقبَل إعجاب امرأة أخرى وأنا أنظر إليك أم أن كلاً

منا سوف يرفض هذا الواقع ويعطى ظهره لصاحبه ويعود ليحلم بلقا آخر فى نابولى ؟

يعود ليحلم بتلك النشوة الخالصة المستقطرة من النور المذاب .

هل يمكن أن ننزل من سماواتنا لنعيش حياة الأرض معًا . . وهل نصلح لحياة الأرض ؟

وهل نرضى حياةً زوجيةً مكرورةً باهتة ؟

ألا ننكر فيها ما أنكرناه فى بعضنا اليوم ثم نعود فنغامر ونحاول أن نلمس سماء الجنة ولو أضعنا كل شىء ولو حطمنا بعضنا بعضا ؟

لا أدرى كيف أجيب . ؟

ونفسى تراوغنى كلما حاولت أن أفهمها .

فهل تدرى أنت ؟

صدقنى أنا لا أعرف ماذا أريد بالضبط ؟

ولا من أنا ؟

وكل ما أعلمه بيقين أنى عشت ذات يوم بملء النفس حينما كنت لى المهجة والفؤاد وسواد العين وكل شىء .

وأنها كانت لحظة عرفناها اختلاسًا .

وأنها مرت ولا سبيل إلى عودتها أبدا .

ومأساة الزمن . . أنه لا توجد لحظة فيه تتكرر مرتين . . وإنما هو نهر دائم الجريان يتغير فيه الماء باستمرار وبلا توقف .

شيء واحد يمكن أن يردنى إليك هو إحساسى الدائم بأنه لا يوجد فى الكون نفسان تتبادلان معًا أخذًا وعطاءً وبكل العمق مثل نفسى ونفسك .

وأحيانًا أقول لنفسى . . حتى إذا لم يبق لى إلّا الحزن . . فلا أجمل من أن أتبادله معك . . حتى الملل واليأس فلن يكونا كأعمق ما يكونان إلّا معك .

والفشل هو أروع ما يكون معك .

والبؤس لن يكون هو البؤس العظيم إلّا معك . . شيء مضحك .

كم أود أن أنتقم منك . . يا حياتى . . وانتحارى .

إن الحقائق فى ذروة تناقضها تبدو دائمًا مضحكة .

هكذا أشعر وأنت أبعد ما تكون عنى أنك أقرب ما تكون إلى . . وأنك فى دمى ونخاعى . . وفى إنكارى واستنكارى ورفضى حينما أنكرك وأستنكرك وأرفضك .

هل أكرهك بمثل ما أحبك ؟

هل أصبحت كل عواطفى بسالبها وموجبها وقفًا عليك ؟

الويل للمرأة حينما تتسمم أعمق آبارها برائحة رجل .

والويل لك منك .

والويل لى منى .

والويل لكل امرأة تنسى نفسها وتسرق منها الروح فى إغماضة عين .

والويل لنا من أنفسنا الأنانية حينما تطلب كل شيء ولا يرضيها أى شيء ولا يشبعها أى شيء . . حينما تصبح نفس كل منا هى جحيمه الأبدى الذى لا خلاص منه ولو بالموت .

انقلاب

كتبت إلى تقول :

أنا زوجة لى عشر سنوات خدمة فى بيت الزوجية وأم لولدين طلقت أثناءها ، ثم عدت لأستأنف حياةً فاترةً بلا طعم ، لا حب فيها ولا كراهية ولا حماسًا لشيء .

ضاعت الطرافة والبهجة والنشوة التى عرفتها فى سنوات الزواج الأولى حينما كنت أعطى بسخاء من روحى وعقلى وجسمى حيث بدأ زواجنا بحب واقتناع برغم فارق السن الكبير .

ولكن الطرافة سرعان ما انتهت وبدأت بينى وبين زوجى فجوة ظلت تتسع وتتسع حتى أصبحت حياتنا مجرد جوار ومساكنة لاثنين غريبين يتكلمان لغات مختلفة فى بيت واحد . . هو لياليه مقسمة بين شارع الهرم وبين سهرات الأصدقاء وصفقات العمل والعلاقات النسائية الخاصة . . وأنا أيامى أعيشها فى الغيظ والكبت والقهر . . ثم

أتمرد على نفسى بين حين وآخر فأردّ على خياناته بخيانات مثلها تبدأ لتنتهى بسرعة وتخلّف فى داخلى حالة من التشتت والضياع والخواء وعدم الرضى والإحباط التام .

وهكذا كانت حياتنا فى السنوات الأخيرة التى حدث فيها الطلاق ثم العودة .

ولا شك أنك تسأل الآن . . ولماذا عدت إليه بعد الطلاق ؟ وعندك حق .

وأنا أيضًا مازلت أسأل نفسى . . لقد قلت لنفسى حينذاك . . أعود من أجل الأولاد . . وقلت لنفسى هو أبوهم وهو أفضل من الغريب . . وقلت لنفسى هو أقدر على توفير الحياة المادية المريحة والنفقات الباذخة التى تعودناها فهو غنى . لكن ربما كان السبب الأهم هو ذلك الرباط الخفى الذى يربطنا . . فإنه بما أعطانى وسلبنى وبما دمّر فى نفسيتى من أخلاقيات ومثل . . أصبحت أشعر بعدها أنى من صنعه وأنى أدين له بالقلق وبالتوتر والخراب والشتات الذى أصبح الآن هو الحالة السائدة لنفسيتى .

كلانا أصبح مثل المأكولات المعلبة التى فسدت وكتب عليها غير صالح للاستعمال . .

وبرغم أنه لم يبق فى قلبى شىء من الغرام القديم . .

وبرغم أنى أصبحت لا أحبه ولا أكرهه . .

إلّا أنه بما أتلف وأفسد ودمر فى نفسيتى واعاداتى وسلوكياتى أصبح فى النهاية هو حياتى أصبح هو طبعى الخوان الغادر . .

وهو عينى المتلفتة وراء الرجال وهو جرأتى التى أفعل بها ما أشاء . .

فأنا أولى الناس به .

وهو أولى الناس بى .

وهكذا عدت إليه بحكم التشاكل والمجانسة لأستأنف حياة أكثر فشلاً وأكثر إحباطًا وأكثر تورطًا .

ما أكثر ما تعكر الماء فى داخلى .

وما أكثر ما أظلمت سماواتى الجميلة الباطنية وأطبقت عليها السحب السود .

حتى قابلته .

ذلك الرجل الناضج الإنسان الرقيق العطوف الحنون الذى طالما كنت أحلم به .

وتعلقت به تعلق الظمآن بالماء . . وتعلق هو بى وأمسك كل منا بالآخر وتعلق بتلابيبه .

وتشبث كفّى بكفّه كأنه طوق نجاة .

ومضت أيام كالحلم .

ومسحت يده على باطنى فأضاءت سماواتى وشعرت أنى أعود إلى بكارتى ونشواتى الأولى وأعود إلى تفتحى ونضارتى وتألقى وتوهجى

وعطائى السخى بلا حدود ولكنها كانت مجرد أيام . .

مجرد لحظات تحصى على أصابع يد واحدة ثم ما لبثت أن عادت السحب السود فأطبقت على داخلى وتعكرت مياهى حتى ظهر الخواء والشرود فى نظراتى فكان يقول لى دائمًا . . أين أنت . . أنت لست معى . .

نعم . . عدت عجوزًا دفعةً واحدة . .

وعاودتنى الغربة والإحساس بالشتات . . والعجز عن العطاء . .

وأظلمت سماواتى . . . وكفّت يدى عن أن تنبض فى يده . .

وأصبحت أشبه بورقة غياب .

إنه يحبنى بكليته ويريد الزواج بى ويعرض على نفسه وروحه وما يملك وأنا أشعر أنى متقلبة ملولة لا يستقر بعواطفى قرار . . وكل ما أحصل عليه أزهد فيه . .

وأنا أسأل نفسى :

هل أستطيع أن أبدأ حياةً جديدة ؟

هل أستطيع أن أقوم بعملية بتر كامل أقطع فيها صلتى بالماضى بما فيه من خراب وتلف واعوجاج ؟

هل يمكن أن أكون خالصة له ؟

ألن يدخل زوجى الأول بما أحدثه من إتلاف ودمار شريكًا خفيًا فى هذه الزيجة . . وكذلك أولادى . . وكذلك أولاده هو فهو أيضا

زوج سابق وله أولاد . .

وهل يبقى له ولى شىء بعد هذا الزحام ؟

إنه مأخوذ بما أعطيت من حب وفناء ذات لحظة ذات مساء شاعرى .

ولكن هل يدوم لى هذا الصفاء وهل تدوم لى هذه القدرة على العطاء .

إنها لم تدم بالفعل . .

ولقد رأى سماواتى تظلم ونظراتى تشرد ويدى تنسحب من يده . .

ولقد افتقدنى وأنا معه ، ولقد رأيته يتألم لهذا الافتقاد ثم يعود فيقول :

سوف أحبك فى كل حالاتك . .

ترى هل يصدق ؟

ومن يدريه بأن تلك الحالة ربما سادت وامتدت وأصبحت هى كل حالاتى . . وأصبحت لحظات الصفاء فى ندرة شمس الشتاء فى القطبين ؟

فهل يرضى بى زوجةً شاردةً غائبةً مشتتة ؟

وهل انتهى زوجى من حياتى بالفعل وخرج منها بلا عودة أم أنه ما زال كل حياتى يربطنا نحن الاثنين دينونة واحدة وخراب تأصل حتى احتوانا . . برغم أنى لا أحبه ولا أكرهه ؟

أحيانًا يخيل إلى أن بناء حياة جديدة بالنسبة لى أشبه بدولة صغيرة ربطت عملتها واقتصادها ومبادلاتها التجارية بدولة كبرى طاغية . . ثم هى تفكر بعد فوات الأوان فى قطع العلاقات وتغيير العملة وفسخ التعاملات لتبدأ علاقةً جديدةً بدولة جديدة .

وأحيانًا أشعر أن حجم التبادلات مع هذا الرجل الذى أصبحت لا أحبه ولا أكرهه . . هو حجم يكاد يكون هائلاً حتى ليكاد يكون بخيره وشره هو حياتى . . ويكاد يكون الخروج من فلكه كالسقوط فى فراغ .

نعم . . هل أقول إنه بما أفسد ودمر . . له أثر فى نفسيتى وفى حياتى أكبر من أثر هذا الرجل الجديد . . وإن كان أثرًا سيئًا هدامًا ؟

إنه حضور . . ولو كان حضورًا بالسلب والإضرار والتخريب .

ولكنه حضور .

وأنا لن أكون خالصةً أبدًا .

وسوف أجرجر خلفى العديد من الأشباح .

وسوف يشاركنا الفراش خلق كثير .

فهل يرضى بذلك الزوج الجديد ؟

وهل يحبنى بهذا الحال ؟

وهل أرضى أنا ؟

ألا أعود فأتلفت فى وجوه الرجال بحثًا عن لحظة هروب واسترخاء

ونسيانْ ؟ ! . . ألا أعود فألتمس أىّ مهرب من التوتر والإحباط فى علاقات جديدة وخيانات جديدة . . ؟

ألا أعود فتجرنى قدماى إلى الزوج الأول بحكم الأولاد والمشاكلة فى المصير وحجم التبادلات التى قد ترجح فى النهاية ما بادلته أى رجل من خير وشر ؟

وأى رجعة فاشلة تكون !

إلى أين أسير . . ؟

وأين تسوقنى قدماى ؟

لا أريد أن أسير وراء الهوى بل وراء العقل ولا أريد أن أكرر الفشل . . ثم أعود فأعالج الفشل بفشل أكبر .

ولا أريد أن أظلم نفسى وأظلم من أحبنى معى .

ولا أريد أن أسترسل فى أحلام بلا أمل فى استقرار .

أريد برّ أمان .

أريد راحة .

بماذا تنصحنى ؟

قرأت الرسالة ولبثت فى حيرة .

وطال بى التفكير . .

إن هذه الزوجة بما وصفت به نفسها هى أبعد ما تكون عن الأمان

وبرّ الأمان . . وهى فى خطر من نفسها أكثر مما هى فى خطر من أى مخلوق .

ولا نجاة لها الا بانقلاب داخلى يبدّلها من الأعماق ومعاناة تحرق حطبها وتذرى رمادها وتجلو معدنها من جديد .

لابدّ لها أن تعبر الجحيم أولاً لتصل إلى برّ ، أىّ برّ . .

لابد لها أن تكتوى حتى نخاع العظم وتبكى حتى تبيض العينان ، وتسجد حتى تذوب وتبتهل حتى تفنى وتعطى نفسها لهدف كبير تضمحل معه الأهداف الصغيرة وتشغل عقلها برسالة شريفة تستغرقها وتستغرق همومها الشخصية . .

فإن كان رجلها الجديد سيأخذ بيدها إلى هذه النقلة ويكون عونًا لها فى هذا الانقلاب الداخلى وهذا التطهر الكامل فهو نجاتها .

أما إن كان الأمر فى نظرها هو مجرد انتقال من رجل إلى رجل ومن ذراعين إلى ذراعين . . فلن يكون إلا انتقالاً آخر بلا جدوى . . لأنها سوف تصحب معها فى كل مكان خواءها النفسى وتوترها وقلقها وهمومها الشخصية ولن تصل إلى برّ أمان وإنما ستظل « محلّك سر » تنتقل من خيانة إلى خيانة .

ولا نجاة ولا عبور ولا خلاص إلّا بالخروج من تكوينها النفسى إلى تكوين نفسى آخر . . من هموم شخصانية ونفس انفرادية شخصانية . . إلى نفس اجتماعية مشغولة بالمشاركة فى أهداف كبرى

وحياة خصبة مثمرة مفيدة للناس تذوب فيها الهموم الصغيرة .

فإن كان زواجها الجديد سيخرج بها من شخصانيتها إلى حياة جديدة مثمرة مفتوحة فلتمض فيه . . وإلّا فلتلزم مكانها مع زوجها فى رف المعلبات التى كتب عليها غير صالح للاستهلاك . . فحظّها من حياتها لن يزيد عن التقلب من رجل إلى رجل ومن ذراعين إلى ذراعين فى حياة محصولها النهائى صفر .

إن مشكلتها الحقيقية ليست هى تغيير الرجل وإنما تغيير النفس . . وليس الحلّ هو خروجها من بيتها وإنما خروجها من نفسها من طبعها وسلوكياتها وعاداتها واهتماماتها واختياراتها فهل هذا ممكن ؟ !

إنها وحدها التى تستطيع أن تجيب وهو سؤال مرتبط بسؤال آخر أكثر صعوبة :

ما هو طبعها بالأصالة . . وما جوهرها ؟

وماذا تريد بنفسها ؟

وماذا يرضيها على وجه الحقيقة ؟

وما تصورها لهدفها الذى خلقت من أجله وما تصورها للدنيا وحكمتها وغايتها ؟

وما الخطأ والصواب فى نظرها ؟ !

وما الحدود التى تتوقف عندها فى طلبها للذة . . وهل عندها تلك الحدود أصلاً ؟

وماذا تخاف .. وهل تخاف ؟

وما هو الشيء الذى تحسب له ألف حساب فى النهاية . . فإن كان هذا الشيء هو راحتها ولذتها وأكلها وشربها ولبسها ومظهرها وتأثيرها على الناس . . فإنها واقفة عند نفسها لا تبرح . . ولن تجد لمشكلتها حلاً .

إنما يبدأ الحلّ حينما يتجاوز الإنسان نفسه ويعلو عليها باحثا عن الأسمى والأرفع .

حينذاك يكون هناك أمل . . مهما اختلفت التصورات فى هذا الهدف الأسمى الذى نتجاوز أنفسنا طلبًا له .

فالفنان يطلب الجمال .

والمفكر يطلب الحقيقة .

والثائر السياسى يطلب العدالة .

والصوفى العارف يطلب الله .

وهم قد اختلفوا فى الظاهر ولكنهم ما اختلفوا فى الحقيقة . . فإن الحق العدل البديع الجميل كلها من أسماء الله .

وإنما الذى اختلف وتخلّف وتوقّف وتعثّر وهلك هو الذى لم يطلب سوى نفسه ولم يختر سوى نفسه فبدأ من نفسه وانتهى عند نفسه .

ومثله لا يفيق من هذه القوقعة التى أغلقتها عليه شهواته إلّا لحظة الموت حينما يكتشف أنه عبّأ الهواء فى جوالات وجمع الفراغ فى حقائب

وأنه لم يجمع شيئًا سوى العدم . .

وهو اكتشاف إذا تأخر ألى لحظة الموت فقد جاء بعد فوات الأوان .

ونصيحتى لها أن تكفّ عن البحث عن رجل . . وأن تبحث فى أعماق نفسها أوّلاً وأخيرًا . .

العذاب ليس له طبقة

الذى يسكن فى أعماق الصحراء يشكو مرّ الشكوى لأنه لا يجد الماء الصالح للشرب .

وساكن الزمالك الذى يجد الماء والنور والسخان والتكييف والتليفون والتليفزيون لو استمعت إليه لوجدته يشكو مرّ الشكوى هو الآخر من سوء الهضم والسكر والضغط .

والمليونير ساكن باريس الذى يجد كل ما يحلم به ، يشكو الكآبة والخوف من الأماكن المغلقة والوسواس والأرق والقلق .

والذى أعطاه الله الصحة والمال والزوجة الجميلة يشك فى زوجته الجميلة ولا يعرف طعم الراحة .

والرجل الناجح المشهور النجم الذى حالفه الحظ فى كل شىء وانتصر فى كل معركة لم يستطع أن ينتصر على ضعفه وخضوعه للمخدر فأدمن الكوكايين وانتهى إلى الدمار .

والملك الذى يملك الأقدار والمصائر والرقاب تراه عبدًا لشهوته خادمًا لأطماعه ذليلاً لنزواته .

وبطل المصارعة أصابه تضخم فى القلب نتيجة تضخم العضلات .

كلنا نخرج من الدنيا بحظوظ متقاربة برغم ما يبدو فى الظاهر من بعد الفوارق .

وبرغم غنى الأغنياء وفقر الفقراء فمحصولهم النهائى من السعادة والشقاء الدنيوى متقارب .

فالله يأخذ بقدر ما يعطى ويعوض بقدر ما يحرم وييسّر بقدر ما يعسّر . . ولو دخل كلٌّ منا قلب الآخر لأشفق عليه ولرأى عدل الموازين الباطنية برغم اختلال الموازين الظاهرية . . ولما شعر بحسد ولا بحقد ولا بزهو ولا بغرور .

إنما هذه القصور والجواهر والحلى واللآلئ مجرد ديكور خارجى من ورق اللعب . . وفى داخل القلوب التى ترقد فيها تسكن الحسرات والآهات الملتاعة .

والحاسدون والحاقدون والمغترون والفرحون مخدوعون فى الظواهر غافلون عن الحقائق .

ولو أدرك السارق هذا الإدراك لما سرق ولو أدركه القاتل لما قتل ولو عرفه الكذاب لما كذب .

ولو علمناه حق العلم لطلبنا الدنيا بعزّة الأنفس ولسعينا فى العيش بالضمير ولتعاشرنا بالفضيلة فلا غالب فى الدنيا ولا مغلوب فى الحقيقة والحظوظ كما قلنا متقاربة فى باطن الأمر ومحصولنا من الشقاء والسعادة متقارب برغم الفوارق الظاهرة بين الطبقات . . فالعذاب ليس له طبقة وإنما هو قاسم مشترك بين الكل . . يتجرع منه كل واحد كأسًا وافيةً ثم فى النهاية تتساوى الكؤوس برغم اختلاف المناظر وتباين الدرجات والهيئات .

وليس اختلاف نفوسنا هو اختلاف سعادة وشقاء وإنما اختلاف مواقف . . فهناك نفس تعلو على شقائها وتتجاوزه وترى فيه الحكمة والعبرة وتلك نفوس مستنيرة ترى العدل والجمال فى كل شىء وتحب الخالق فى كل أفعاله . . وهناك نفوس تمضغ شقاءها وتجترّه وتحوّله إلى حقد أسود وحسد أكّال . . وتلك هى النفوس المظلمة المحجوبة الكافرة بخالقها المتمردة على أفعاله .

وكل نفس تمهّد بموقفها لمصيرها النهائى فى العالم الآخر . . حيث يكون الشقاء الحقيقى . . أو السعادة الحقيقية . . فأهل الرضا إلى النعيم وأهل الحقد إلى الجحيم .

أما الدنيا فليس فيها نعيم ولا جحيم إلّا بحكم الظاهر فقط بينما فى الحقيقة تتساوى الكؤوس التى يتجرعها الكل . . والكل فى تعب .

إنما الدنيا امتحان لإبراز المواقف . . فما اختلفت النفوس إلّا

بمواقفها وما تفاضلت إلّا بمواقفها .

وليس بالشقاء والنعيم اختلفت ولا بالحظوظ المتفاوتة تفاضلت ولا بما يبدو على الوجوه من ضحك وبكاء تنوعت .

فذلك هو المسرح الظاهر الخادع .

وتلك هى لبسة الديكور والثياب التنكرية التى يرتديها . الأبطال حيث يبدو أحدنا ملكًا والآخر صعلوكًا وحيث يتفاوت أمامنا المتخم والمحروم .

أما وراء الكواليس .

أما على مسرح القلوب .

أما فى كوامن الأسرار وعلى مسرح الحق والحقيقة . . فلا يوجد ظالم ولا مظلوم ولا متخم ولا محروم . . وإنما عدل مطلق واستحقاق نزيه يجرى على سنن ثابتة لا تتخلف حيث يمد الله يد السلوى الخفية يحنو بها على المحروم وينير بها ضمائر العميان ويلاطف أهل المسكنة ويؤنس الأيتام والمتوحدين فى الخلوات ويعوض الصابرين حلاوةً فى قلوبهم . . ثم يميل بيد القبض والخفض فيطمس على بصائر المترفين ويوهن قلوب المتخمين ويؤرق عيون الظالمين ويرهل أبدان المسرفين . .

وتلك هى الرياح الخفية المنذرة التى تهب من الجحيم والنسمات المبشرة التى تأتى من الجنة . . والمقدمات التى تسبق اليوم الموعود . . يوم تتكشف الأستار وتهتك الحجب وتفترق المصائر إلى شقاء حق وإلى نعيم

حق . . يوم لا تنفع معذرة . . ولا تجدى تذكره .

وأهل الحكمة فى راحة لأنهم أدركوا هذا بعقولهم وأهل الله فى راحة لأنهم أسلموا إلى الله فى ثقة وقبلوا ما يجريه عليهم ورأوا فى أفعاله عدلاً مطلقًا دون أن يتعبوا عقولهم فأراحوا عقولهم أيضًا فجمعوا لأنفسهم بين الراحتين راحة القلب وراحة العقل فأثمرت الراحتان راحةً ثالثةً هى راحة البدن . . بينما شقى أصحاب العقول بمجادلاتهم .

أما أهل الغفلة وهم الأغلبية الغالبة فما زالوا يقتل بعضهم بعضًا من أجل اللقمة والمرأة والدرهم وفدان الأرض ، ثم لا يجمعون شيئًا إلّا مزيدًا من الهموم وأحمالاً من الخطايا وظمأً لا يرتوى وجوعًا لا يشبع .

فانظر من أى طائفة من هؤلاء أنت . . واغلق عليك بابك وابك على خطيئتك .

عن الانتحار

من العجيب أن التقدم الذى جاء بمزيد من وسائل الترف والراحة وبمزيد من التسهيلات للإنسان . . قد قابله الإنسان بمزيد من الرفض والسخط والتبرم ، فرأينا إحصائيات الانتحار ترتفع مع مؤشرات التقدم فى كل بلد . . كلما ازداد البلد مدنيةً ازداد عدد الذين يطلقون على أنفسهم الرصاص ويلقون بأنفسهم من النوافذ ويبتلعون السمّ ويشربون ماء النار . . هذا غير الانتحار المستتر بالخمور والمخدرات والتدخين والمنوّمات والمسكّنات والمنبّهات . . وفى مقدمة هؤلاء المنتحرين طلائع فن وفكر وثقافة تعوّد الناس أن يأخذوا عنهم الحكمة والعلم والتوجيه .

ووصلت الموجة إلى بلادنا فامتلأت أعمدة الصحف بأخبار ابتلاع السمّ وإطلاق الرصاص والشنق والحرق . . وقال المختصون إن نسبة الزيادة الإحصائية تجاوزت العشرين فى المائة . . وهو رقم كبير .

والازدياد متواصل سنةً بعد سنة .

والسؤال . . لماذا . . وما السر؟

وما سبب الانتحار ؟

وإذا تركنا التفاصيل جانبًا وحاولنا تأصيل المشكلة وجدنا جميع أسباب الانتحار تنتهى إلى سبب واحد . . أننا أمام إنسان خابت توقعاته ولم يعد يجد فى نفسه العزم أو الهمّة أو الاستعداد للمصالحة مع الواقع الجديد أو الصبر على الواقع القديم .

إنها لحظة نفاد طاقة ونفاد صبر ونفاد حيلة ونفاد عزم .

لحظة إلقاء سلاح . . يأس . . ما يلبث أن ينقلب إلى اتهام وإدانة للآخرين وللدنيا ثم عداوة للنفس وللآخرين وللدنيا تظل تتصاعد وتتفاقم حتى تتحول إلى حرب من نوع مختلف يعلنها الواحد على نفسه ويشنها على باطنه ، وفى لحظة ذروة تلتقط يده السلاح لتقتلع المشكلة من جذورها . . ولتقتلع معها الإحساس المرير وذلك بطمس العين التى تبصر وقطع اللسان الذى يذوق وتحطيم الدماغ الذى يفكر وتدمير اليد التى تفعل والقدم الذى يمشى .

وهو نوع من الانفراد بالرأى والانفراد بالحلّ ومصادرة جميع الآراء الأخرى بل إنكار أحقية كل وجود آخر غير الذات .

ولهذا كانت لحظة الانتحار تتضمن بالضرورة الكفر بالله وإنكاره وإنكار فضله واليأس من رحمته واتهامه فى صنعته وفى عدله ورفض

أياديه ورفض أحكامه ورفض تدخله .

فهى لحظة كبر وعلو وغطرسة واستبداد .

وليست لحظة ضعف وبؤس وانكسار .

وبدون هذا العلو والكبر والغطرسة لا يمكن أن يحدث الانتحار أبدا .

فالإنسان لا ينتحر إلّا فى لحظة دكتاتورية مطلقة وتعصّب أعمى لا يرى فيه إلّا نفسه .

فالانتحار فى صميمه اعتزاز بالنفس وتألّه ومنازعة الله فى ربوبيته .

والمنتحر يختار نفسه ويصادر كل أنواع الوجود الآخر فى لحظة غلٍّ مطلق . . فى لحظة جحيم . .

ولهذا يقول الله أن من يقتل نفسه يهوى إلى جحيم أبدى ، لأنه قد اختار الغلّ وانتصر للغلّ وأخذ جانب الغل عند الاختيار النهائى للمصير .

والانفراد المطلق فى الرأى عصبية وغلّ ونارية إبليسية . . والنفس المتكبرة الأمارة بالسوء هى نار محضة وظلمة . .

وكل منا فى داخله عدة احتمالات لنفوس متعددة . . فى داخل كل منا نفس أمارة ظلمانية توسوس له بالشر والشهوات . . ونفس لوامة نورانية تحضّه على الخير ثم كل المراتب النفسية علوًّا وسفلاً فوق وتحت هاتين المنزلتين .

وكل نفس فى حالة تذبذب مستمر بين هذه المراتب صاعدة هابطة فهى حينًا ترتفع إلى آفاق ملهمة وحينًا تهبط إلى مهاوٍ مظلمة شهوانية . ثم فى النهاية تستقر . . فإذا استقرت فإنها تستقر على حقيقتها وعلى منزلتها التى سوف تلوم لها إلى الأبد وسوف تبعث عليها .

فالنفس التى استقرت على الرفض والكبر والغطرسة والغلّ ثم اقتلعت أسنانها ولسانها وسمعها وبصرها وقطعت رقبتها فى غلٍّ نهائى لا مراجعة فيه هى قد اختارت الجحيم بالفعل . بل إنها هى ذاتها قبضة نار لا مكان لها إلّا فى الجحيم .

(نارًا وقودها الناس والحجارة)

يقول ربنا إن هذه النفوس هى وقود النار وجمراتها ومصدر الطاقة النارية فيها ، ومعنى هذا أنها أشدّ نارية من النار .

والمنتحر يتصوّر أنه سوف يتخلّص من نفسه ، ولكن لا خلاص ولا مهرب لإنسان من ذاته ، فهو لن يخرج بالانتحار إلى راحة ، بل هو خارج من النار الصغرى إلى النار الكبرى ومن النار الزمنية إلى النار الأبدية .

ولنتجنب هذا المصير فإننا لابدّ أن نتجنب المشكلة أصلاً .

والمشكلة أصلاً هى التعلق . . ومن ليس له تعلّق بشىء لا ينتحر لشىء .

ولا يجوز عند المؤمنين تعلق إلّا بالله فهو وحده جامع الكمالات ،

الدائم الباقى الذى لا يتغير ولا تخيب عنده التوقعات ولا تضيع الآمال .

والله هو المحبوب وحده على وجه الأصالة وما نحب فى الآخرين إلّا تجلياته وأنواره فجمال الوجوه من نوره وحنان القلوب من حنانه فنحن لا نملك من أنفسنا شيئًا إلّا بقدر ما يخلع علينا سيدنا ومولانا من أنواره وأسمائه .

فنحن لا نحب فى بعضنا إلّا هو .

وهو حاضر لا يغيب ولا يهجر ولا يغدر ولا يغلق بابه فى وجه لاجئ ولا يطرد من رحابه ملهوف .

فالواقفون عنده مطمئنون راضون ناعمون لا يخطر لهم الانتحار على بال سعداء فى جميع الأحوال .

إنما ينتحر من تعلّق بغيره .

الذى تعلّق بليلاه ومعشوقته وظنّ أن جمالها منها فتعلق بها لذاتها تعلّق عبادة ، وأصبح يتوقع منها ما يتوقع عبد من معبود وربط نفسه بها رباط مصير . ونسى أنها ناقصة كسائر الخلق ومحل للتغير والتبدل تتداول عليها الأحوال والتقلبات فتكره اليوم ما أحبته بالأمس وتزهد غدًا فيما عشقته اليوم .

ونسى أن جمالها مستعار من خالقها وأنها إعارة لأجل وحينما ينتهى الأجل ستعود أقبح من القبح .

مثل هذا الرجل المحجوب الغافل إذا أفاق على الصحوة المريرة

وفاجأه الغدر والتحول يشعر شعور من فقد كل رصيده وأفلس إفلاس الموت ولم يبق له إلّا الانتحار .

ولو أنه رأى جمالها من خالقها لأحب فيها إبداع صنعة الصانع ولكان من أهل التسبيح الذين يقولون عند رؤية كل زهرة . . الله . . فإذا رأوها فى آخر النهار ذابلة . . قالوا حقًّا لا إله إلا الله . . فحبُّهم لله وفى الله وروابطهم روابط مودّة ومعروف لا مقصد لها ولا غرض ولا توقّع . . فالغدر لا يفجأهم والهجر لا يصدمهم وشأنهم كما يقول المثل العامى . . اعمل الخير وارمه البحر . . يبسطون أيديهم بالمعونة دون حساب لأىّ عائد ودون توقع لثمرة .

هؤلاء هم أهل السلامة دائمًا .

وهم أهل الطمأنينة والسكينة لا تزلزلهم الزلازل ولا تحركهم النوازل .

هم أهل الطمأنينة اليوم .

وهم أهل الطمأنينة يوم الفزع الأكبر . . يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا ، ويوم لا ينفع مال ولا بنون .

وهؤلاء لا يتعلقون إلّا بالله .

ولا يؤملون إلّا فى الله .

ولا يتوقعون إلّا من الله .

وفى كتاب المواقف والمخاطبات لمحمد بن عبد الجبار بن الحسن

النفرى يقول الله لعبده :

يا عبد اهدم ما بنيت بيدك قبل أن أهدمه بيدى .

يا عبد إن شهدت أن كل شىء لى لم ترتبط به .

يا عبد إن طلعت عليك شمس أو ترنم طائر فاستر وجهك فإنك إن رأيت غيرى عبدته وإن رآك غيرى عبدك . . ثم لا تنفعكما شفاعة الشافعين .

يا عبد إذا استندت إلى شىء فقد اعتصمت به دونى وكتبتك مشركًا .

بتلك الكلمات العالية الرفيعة المحلّقة يصور ابن عبد الجبار عالم اليوم ويصور لون الشرك الذى نعيشه اليوم وكيف أصبح هذا الشرك الخفى يداخل كل قلب ويخالط كل سلوك . . وكيف أن المشكلة هى بالدرجة الأولى مشكلة إيمان . . فكلما وضعت التكنولوجيا فى يد الإنسان قوةً وثروةً واستغناءً ازداد بُعدًا وغرورًا وكبرًا وتمردًا ، وازداد تعلقًا وارتباطًا بالأصنام المادية التى خلقها ، وازداد خضوعًا للملذات التى يسرها لنفسه . . وتصور أن قوته سوف تعصمه وعلمه سوف يحميه فأمعن فى غروره .

وهل عصم الجبل ابن نوح من الطوفان ؟ !

بل كان من المغرقين .

(فلا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم) .

ضع يدك فى يد الله ولا تبرح وحسبك من علاقتك بالناس أن نبذل لهم مودتك ورحمتك على غير توقع لشىء . . فذلك هو قارب النجاة فى عالم اليوم . . عالم الانتحار والمنتحرين .

والمحصول صفر

لا يوجد وهْمٌ يبدو كأنه حقيقة مثل الحب . .

ولا حقيقة نتعامل معها وكأنها الوهم مثل الموت فليس هناك أمر مؤكد أكثر من الموت ، ومع ذلك لا نفكر أبدًا بأننا سنموت ، وإذا حدث وفكرنا لا يتجاوز تفكيرنا وهمًا عابرًا عبور النسيم .

والعكس فى حالة الحب ، فرغم أن الحب دائمًا أمر يزينه الخيال ويضخمه الوهم ويجسّمه التصور وتنفخ فيه الشهوات ، ورغم أن الحب يشتعل وينطفئ ويسخن ويبرد وقد ينقلب فى لحظة إلى عداوة وقد يتحول إلى جريمة ، ورغم أن أحوال الحب وتقلباته تشهد بأنه وهم كبير ، إلّا أننا نتعامل معه بالرهبة والتقديس والاحترام والخضوع الواجب للحقائق المطلقة . . ونظل على هذا الخلط والاختلاط حتى نفيق على الصدمة فنصحو ونستعيد رشدنا لأيام أو شهور أو سنوات ولكن لا نلبث أن نستسلم إلى إغماء جديد .

وسبب الخلط والاختلاط هو دائمًا خطأ فى النسبة . . فنحن دائمًا ننسب الجمال الذى شاهدناه والحنان الذى تذوّقناه إلى صاحبته مع أنها ليست صاحبته ولا مالكته . . ولو امتلكت امرأة جمالها لدام لها . . ولكن الجمال لم يدم لأحد ، لأنه منحة وإعارة من الله بأجل وميقات وهو قرض يسترده فى حينه . . فصاحبه ومالكه هو الله وليس أىّ امرأة .

وكذلك كل ما نعشق من حنان ومودة ورأفة وحلم وكرم كلها خِلَع ومنح وأوصاف مستعارة من الودود الرءوف الحليم الكريم . . وهو مالكها بالأصالة . . ونحن نملكها عنه بالقرض والإعارة .

ولكن العين التى تعشق الجمال تخطئ نسبته وملكيته فتظنه لصاحبته فتعشق صاحبته وتعبد صاحبته .

وهى تظل فى هذا الوهم حتى تفيق على القبح يطل من تحت المساحيق والقسوة تظهر من وراء الأهداب فتصحو على الصدمة وتعانى وتتعذب وتندم وتعتبر وتتوب ثم تعود فتنسى وتنزلق إلى وهم جديد . .

وتلك هى الغفلة المستمرة التى نعيش فيها جميعًا نفيق منها لحظات لنعود فنغرق فى سباتها من جديد ولا يسلم من هذا البلاء إلّا نبىٌّ معصوم أو ولىٌّ كامل أو صوفىٌّ عارف يحفظه ربّه ويسدل عليه كنَفه . . فلا يرى حيثما تولى إلّا وجه الله .

(أينما تولو فثم وجه الله) .

فهو الجمال فى كل جميل وهو الرأفة والحنان والكرم والحلم والمودة . . فتلك أسماؤه تتجلى فى أوانى الطين والخزف الشفافة التى شفّها الإحساس حتى أصبحت مثل الكريستال المضىء تمامًا كما يرى الفلكى نور القمر فيعرف أنه ليس نوره بل نور الشمس تجلّى على وجهه .

وهكذا لا يرى هذا العارف أينما تولّى إلّا وجه الله . . وهو دائم الهمس . .الله . . الله . . الله . .الله . . الله . . وهو ناظر دائمًا إلى الظاهر وليس إلى المظاهر . . ناظر إلى الله الظاهر دائمًا فى كل شىء . . لا يطرف . . متعلّق بالمعانى وليس بالأوانى .

وهو لهذا فى حالة « جمعية » لا ينفرط ولا ينقسم ولا يتشتت ولا يضيع فى التلفّت ، وإنما هو مجذوب الفؤاد إلى الله على الدوام .

ولكن أمثال هذا الرجل قليل نادر مثل الماس واليورانيوم وأمثاله لا يتجاوزون أفرادًا وآحادًا بين ألوف الملايين من الحشد الغافل المغمى عليه .

وهى غفلة عامة غالبة لا ينجى فيها علم ولا ثقافة ولا دكتوراه ولا ماجستير فتلك أبواب غرور تزيد من الغفلة . . فنرى العالم يضع علمه فى خدمة هواه ، وعقله فى خدمة عاطفته ، ومواهبه فى خدمة شهواته . فتصبح بلواه مضاعفة وصدمته قاصمةً للظهر .

ويمضي العمر فى سلسلة من الغفلات والإغماءات مجموعها فى

الختام صفر أو هى فى الحقيقة حاصل طرح وليست حاصل جمع .
فمجموعها فى النهاية بالسالب وليس بالموجب فحياة صاحبها إلى نقصان يومًا بعد يوم وسنةً بعد سنة يخرج من وهم إلى وهم ومن خدعة إلى خدعة .. حاله مثل حال الشارب من ماء مالح . كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا لا يحصل على سكينة ولا يبلغ اطمئنانًا . وإنما هو هابط دومًا من قلق إلى قلق . ومن تمزق إلى تمزق . ومن تشتّت إلى تشتت . حتى تنتهى حياته بلا ثمرة . وينتهى تحصيله بلا جدوى . .

وتلك هى العقلية الاستمتاعية السائدة اليوم فى عالم وثنىّ ، أصنامه اللذة والغلبة والهوى . . معبود كلّ واحد نفسه وكتابه رأيه ودستوره مصلحته .

والحال فى الأمم المتخلّفة والنامية أسوأ مما هو فى الأمم المتقدمة . . وهى أمم مجموعها أحيانًا « حاصل طرح أفرادها » وليس حاصل جمعهم ، لأنهم منفرطون منقسمون متباعدون كالجزر التائهة فى البحر . . يضرب بعضهم بعضًا . . وعزمهم مستهلك . . وقوتهم لا شىء . .

يتحدثون عن الوحدة .

ولا وحدة إلّا بالواحد .

هو وحده الواحد لا إلّه إلّا هو . الذى يخرج به كل واحد من شتات نفسه وتخرج به الأمم من تفرّقها ويخرج به العالم من انقسامه .

والقضية بالدرجة الأولى قضية إيمان .

هى قضية رؤية . .

كيف نرى العالم . . ؟

وكيف ننظر فيما حولنا . . ؟

وكيف نحب . ؟

هل نستطيع أن نكون ذلك العارف الكامل الذى لا يرى فى كل شىء إلّا الواحد . . ولا يبصر إلّا وجه ربّه فى كل محبوب .

هل يمكن أن نكون مصداق الآية :

(أينما تولوا فثم وجه الله) .

وفى هذا الإطار نحب وفى هذا الإطار نكره . . فنبذل المروءة والمعروف والمودّة للجميع ولا يكون لنا تعلّق ولا يكون لنا حب إلّا لله وبالله وفى الله .

ذلك هو الجهاد الصعب .

ولا اختيار . .

ولا طريق آخر .

وكلّ واحد وعزمه .

وكل واحد وهمته . .

وعبرة كل حياة بختامها . .

فلنسارع إلى المجاهدة ولنشمّر السواعد حتى لا يكون محصول حياتنا

صفرًا وحتى لا يمضى بنا كل يوم إلى نقصان وحتى لا يصبح كل يوم من أيامنا مطروحًا من الذى قبله .

إنما خلق الله الغواية لامتحان القلوب . . . وليعرف الكبار أنفسهم وليعرف الصغار أنفسهم من البداية . .

وفى كتاب المواقف والمخاطبات للصوفى العارف محمد بن عبد الجبار ابن الحسن النفرى يقول الله لعبده .

« خلقتك لى . . لجوارى . . لتكون موضع نظرى ومحل عنايتى وبنيت حولك سدًّا من كل جانب غيرةً عليك .

ثم أردت أن أمتحنك ففتحت لك فى السدّ أبوابًا بعدد ما خلقت وبعدد ما أبديت من جواذب الإغراء .

وخارج كل باب زرعت لك شجرةً وعين ماء باردة وأظمأتك وحلفت بآلائى ما انصرفت عنى خارجًا لتشرب إلّا ضيعتك فلا إلى جوارى عدتَ ولا على الارتواء حصلت . . فقد ضللت عنى ونسيت أنى أنا الارتواء الوحيد والسكن الوحيد لك . . وأنى أنا الله الحق خالق كل هذه الصور والممدّ لكل جميل بجماله . . وأن كل شىء منى .

يا عبد سترتك برحمتى وحجبتك عن كل هذه الأبواب وحجبتك عن هذه الشواغل والصوارف فرأيتك تحاول أن تخرق الحجاب لتعاود ضعفك فلا تفعل فتعيش ذليل الأشياء سجين العطش الأبدى .

يا عبد لن تعرفنى حتى ترانى أوتى الدنيا أرغد وأهنا ما عرفت من

الدنيا لعبد عصى . .

فترضى بما حرمتك وتعلم أنى ما حرمتك إلّا من غضبى وإعراضى .

يا عبد ميعاد ما بينك وبين أهل الدنيا أن تزول الدنيا فترى أين أنت وأين أهل الدنيا .

وتلك كلمات الصوفى العارف محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى . . صاحب أحلى الكلام . . والجالس على أعلى ذروة للتأمل بلغها إنسان .

أراد أن يرحمها

هى صاحبة مال وجمال ودلال .

فى أناملها الرقيقة المرصعة من خواتم الماس والزمرد ما يكفى لبناء جامعة .

وعلى كتفيها معطف أنيق من فراء الفيزون النادر يكفى للإنفاق على مستشفى .

وفى جراج بابا ثلاث عربات مرسيدس أمدّ الله فى عمره وهو لا يردّ لها طلبًا . . وكلما رفض لها عريسًا زادها فى أصابعها خاتمًا .

وهى بعد أن امتلكت الدنيا لا تعرف ماذا تريد بالضبط .

وهى وإن كانت لا تعرف ماذا تريد فإنها تعرف تمامًا ماذا ترفض .

وهى ترفض كل ما يطرق عليها الباب .

حتى الطقس ترفضه . . . فهو دائمًا حار أكثر من اللازم أو بارد أكثر من اللازم . . أو غائم أكثر من اللازم أو صحو أكثر من اللازم أو

رطب أكثر من اللازم .

كما أن الطعام دسم أكثر من اللازم أو مملح أكثر من اللازم أو مسكر أكثر من اللازم أو ساخن أكثر من اللازم أو بارد أكثر من اللازم .

ولابدّ أن ترى فى كل شىء عيبًا .

نوع من الدلع وسوء التربية .

عقدة الترف والوفرة .

وأف من هذا .

وأف من ذاك .

بردانة . . حرانة . . متضايقة . . قلقانة . . زهقانة . . يرن تليفونها كل ثلاث دقائق .

تبكى بلا سبب .

من الضجر أحيانًا . .

أو من عبء حريّة لا تعرف فيما تنفقها ولا كيف تنفقها .

أو من أثقال ثروة لا تعرف كيف تبدّدها .

أو من وطأة زمن لا معقول يجرجر وراءه العقم واللاجدوى . . والعبث الفارغ .

رأيتها تدور كالفراشة حول غرفة نوم فى معرض موبيليا . . وتحملق فى الأثاث المترف بعيون نائمة.. على السرير بطاقة بالثمن ٢٦ ألف جنيه .

ومن خلال أهدابها المطلية بالماسكارا تتأمل وسائد ريش النعام والدولاب المكسو بالشاموا والازرار الإلكترونية فى متناول اليد التى تطفىء وتدير وتغير قنوات التليفزيون المثبت فى أقصى السرير وتشغل الستريو والبيك آب والكاسيت .

وسمعتها تمطّ شفتيها وتهمس فى نبرة لا مبالية . . موش بطال .

لا شك أنها سوف تحدث صاحبها فى التليفون بعد دقائق فى شأن هذه الغرفة .

ولا شك بعد ذلك أنها سوف تنسى الموضوع .

ثم إنها لن تفاجأ كثيرًا حينما تطرق بابها عربة الأثاث تحمل إليها غرفة النوم الأنيقة .

ولا شك أنها سوف تتمدّد عليها كقطة . ولا شك أنها سوف تتثاءب فى ملل بعد دقائق . . ثم ما تلبث أن تفقد الشعور بجمالها وطرافتها .

فإنها كالعادة . . كل شىء تملكه ما تلبث أن تزهده .

ثم يعود كابوس الملل والضجر . . والزمن الثقيل الذى يجرجر قطار اللاجدوى يضغط على أعصابها .

لا تحتقروها ياسادة .

ولكن أشفقوا عليها .

فإن الله لم يحتقر شيئًا حين خلقه .

ولو أنه احتقر شأنها لما خلقها من البداية . ولكن كل ما فى الأمر . أنها امرأة مدللة لم تجد الأب الذى يؤدّبها ولا الأم التى تنهرها ولا الدنيا التى تقهرها .

ولكن الله لا يهمل أحدًا . .

وقد كتب على نفسه فى أزله الرحمة للجميع .

وقال عن نفسه أنه الرب لا ربّ سواه . . وقد اقتضت رحمته أن يقسو أحيانًا على بعض خلقه ليصلحهم . .

فإنه لا يرضى أن تكون لنا عيون ولا نبصر وتكون لنا آذان ولا نسمع .

وقد شقّ اللحم ليفتح عيون الأجنة فى الأرحام كما شقّ الرءوس ليفتح مجارى الآذان .

وقد شاء ربنا عنايةً منه بهذه المرأة أن يرحمها .

فصحت الجميلة ذات صباح لتكتشف أنها مسلوبة نعمة البصر .

انطبقت الظلمة على عينيها تمامًا فلم تعد تبصر شيئًا .

وصرخت وبكت وارتعدت رعبًا .

واجتمع على رأس فراشها طبّ الأمريكان والإنجليز والفرنسيين والأسبان .

وتداول علماء الشرق والغرب وانفضوا وهم يقلّبون الأكفّ يأسًا وعجزًا .

ولا شفاء . .

ولا حل . .

ولا أمل فى حلّ .

وفى الظلمة المطبقة المطلقة . . كانت تتحسس وجه حبيبها وتبكى فى حرقة وتهمس .

أريد أن يرتد إلى بصرى لأرى وجهك .

هل تصدق أنى لم أر وجهك . . حينما كانت لى عينان وحينما كان لى بصر لم أكن أراك .

لم أكن أرى سوى رغباتى .

لم أكن أشعر إلّا بنفسى .

لم أكن أرى أحدًا .

كان العالم كله مجموعة من المرايا لا أرى فيها إلّا وجهى أنا . . وجمالى أنا . . ورغباتى أنا . .

اليوم فقط أحاول أن أستشف ملامحك بأناملى وأحاول أن أتعرف عليك . . وأحاول أن أقترب منك .

ياحبيبى كم أتمنى أن أراك . . وأن أعاشر وجهك بعينى .

وبكت وغسلت يديه بدموعها .

صدقوها ياسادة .

فهذه أول مرة تطلب شيئًا بحق وتتمنى شيئًا بحق . . وتشعر على

وجه اليقين أن هناك شيئًا يسعدها .

صدقوها . . . واسألوا لها الشفاء .

فاليوم ولدت إنسانيتها . . بفعل من أفعال الرحمة الإلٓهية . . وبسر من أسرار الله الذى يخفى رحمته فى عذابه .

أهل النار

الغضب . . الحقد . . الحسد . . الغلّ . . الشهوة . . كلّها نار . . كلّها تعتمل فى النفس اعتمال النار وتأكل فيها كما تأكل النار فى الحطب .

وجهاد النفس هدفه محاصرة هذه النار ومغالبتها والتحكم فيها وتخليص القلب منها .

ومن مات وفى نفسه شهوة لم يغلبها فقد مات وللنار فيه نصيب . . ففى الآخرة تنهتك الأسرار وتنكشف الأستار وتظهر الخبايا وتفتضح الحنايا وتبدو النفوس على ما هى عليه فى حقيقتها إن كانت نورًا فنور وإن كانت نارًا فنار .

فإن كانت نارًا اتصلت بما يجانسها . . ألا ترى بقع الزيت الطافية فى الماء تجتمع على بعضها وتنادى على بعضها وتلتحم ببعضها . . كما تلتحم حبات الزئبق معًا وتتلاصق معًا .

فكذلك النار حينما تطلع على الأفئدة فإنها تلابس الأفئدة النارية وتسرح فيها كما تسرح النار فى الهشيم .

ومهلة العمر هى الفرصة الوحيدة لمعالجة هذه النار الداخلية وإخمادها وذلك بالصلاة والذكر وجهاد النفس ومعاناة الخطأ والاكتواء بعواقبه واكتساب العبرة والخبرة والخروج بنور الحكمة من نار الألم .

فمن عاش عمره المديد ولم يزدد خبرةً ولم يكتسب حكمةً ولم يجاهد نقصًا وخرج من الدنيا بلا توبة وهو ما زال مغلوبًا بشهواته منقادًا لناره فهو إلى النار ذاهب . . فهو والنار كلاهما من معدن واحد وهو فى النار منذ الأزل وهو فيها دنيا وآخرة بحكم المشاكلة والمجانسة والنار حقيقته . . وهو بضعة منها . . إنما أطفأ الله ناره لبرهة قصيرة من العمر حينما خلقه وألقى عليه الماء والتراب وسوّاه طينًا . . فلما عاد ترابًا . وخلع الله عنه ثوبه الطينى عادت حقيقته النارية وظهر البركان الذى كان مستورًا خلف الضلوع .

وهذا حال أهل النار الذين هم أهلها (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) (٣٧ فاطر) .

ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . . فإنهم نار بحكم حقائقهم وسيعاودون الإجرام بحكم حقائقهم ولو أعاد الله خلقهم ألف مرة .

ولا يصح أن يلتبس الأمر على القارئ فيشتبه عليه أن الله جبرهم على الشر بحكم ما أودع فيهم من حقائق الحسد والحقد . . سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا فإن الله يذكرهم فى قرآنه فينسب حسدهم إلى أنفسهم فيقول :

(حسدًا من عند أنفسهم) .

فالله يخلق القلب محايدًا صالحًا لأن يحتوى نية صاحبه إن كانت خيرًا فخير وإن كانت شرًّا فشر ، والله جعل النيّة حرّةً والمبادرة القلبية حرةً تمامًا حتى الشيطان لا يستطيع أن يدخل القلب إلّا بإذن صاحبه . . لم يجعل الله للشيطان سلطانًا قاهرًا على القلوب فقال له :

(عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

ولهذا لا يستطيع الشيطان أن يستهوى إلا الشيطانيين أمثاله الذين يستضيفونه مختارين فى قلوبهم ويفتحون له آذانهم . .

وحقائق النفوس ثابتة للنفوس منذ الأزل . . . وهى أسرارها المعلومة لله علمًا قديمًا لم يجبر الله نفسًا على شرّ .

وكل نفس هى التى أسرّت وكتمت وأخفت فى طويتها هذه الشرور أو الخيرات .

(والله مخرج ماكنتم تكتمون) (٧٢ – البقرة) .

لم يقل : (خالق ماكنتم تكتمون) . . بل قال مخرج ماكنتم تكتمون فهو ليس مسئولاً عن حسد الحاسد وعن حقد الحاقد . . وإنما

هو مخرج ومظهر هذه الأشياء فقط بما يجريه علينا فى الدنيا من اختبار وابتلاء وتقليب فى الأحوال . . ولكنه لم يخلقها فى نفوس أصحابها .

والأمر خطير . .

ولو أدرك كل منا أنه على شفا حفرة من النار الفعلية وأن ناره فيه أقرب إليه من أنفاسه لخرّ على ركبتيه ساجدًا باكيًا صارخًا متوسّلاً .

ولأصبح من أهل الخوف والرجاء الذين يموتون كل يوم قبل أن يموتوا .

فإن الله الذى خلق العالم بدقة مذهلة وإحكام مدهش والذى خلق للإلكترون المتناهى فى الصغر مدارًا لا يستطيع أن يتجاوزه . . فإذا اقتضى الأمر أن ينتقل من مدار إلى مدار فإنه لا يستطيع أن يقفز إلى الخارج أو إلى الداخل إلّا أذا أعطى أو أخذ شحنةً مساويةً لحركته .

الخالق الذى قدر هذا الضبط والربط فى حركة إلكترون متناه فى الصغر لن يستطيع أن يفلت منه مجرم ولن يستطيع أن يمكر به ماكر وهو الذى وصف نفسه بأنه خير الماكرين . . وبأنه خالق كل شىء . . بيده مقاليد كل شىء . . العزيز الجبار المهيمن الذى ليس كمثله شىء . . السميع البصير اللطيف الخبير الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . . الذى له الشفاعة جميعًا .

(وكم من مَلَكٍ فى السمواتِ لا تُغْنى شفاعتُهم شيئًا إلّا مِن بعْدِ أن يأذن اللهُ لمن يشاءُ ويَرْضَى) (٢٦ – النجم) .

(مَا مِنْ شَفيعٍ إلّا مِن بَعْدِ إذْنِه) (٣ – يونس) .

(مَالكُم مِن دونِهِ مِن وَلِىٍّ ولا شَفيعٍ) (٤ – السجدة) .

ذلكم الله فطوبى لمن أدركه الخوف .

وطوبى للذاكرين الموت . .

الباكين فى ساعات الوحدة .

المشفقين من يوم اللقاء .

الذين رأو النار فى نفوسهم قبل أن يروها رأى العين .

الذين استشفّوا الحقائق واستبصروا الغيب ولمسوا الشواهد وأدركوا الآيات وأيقنوا قبل زمان الإيقان .

أهل التسليم والخشوع لله .

اللهم اجعلنا منهم .

الشجرة

المرأة كالدنيا فيها تقلبات الفصول الأربعة .

تفيء إليها ذات يوم فتجد الظلّ والخضرة والعبير والثمر وتلجأ إليها في يوم آخر فتراها تعرّت عن أوراقها وجفّت فيها الحياة وتوقف العطاء لا ظلّ ولا زهر ولا ثمر .

تتداول عليها الأحوال تداول الليل والنهار والربيع والخريف والمطر والجفاف والجدب والنماء .

فإن كنت عشقت الظل والخضرة والعبير والثمر فذلك ليس وجه المرأة فإن للمرأة كلّ وجوه الدنيا وهي تشرق وتغرب مثل القمر وتطلع وتأفل مثل الشمس وتورق وتذبل مثل الورد .. فإن كان ماتنورت به عيناها ذات مساء هو ما عشقت فما عشقت وجهها بل وجه الله الذي أشرق عليها وعليك ذات مساء .

وحيثما يشرق وجه الله تتنور المظاهر ويورق الشجر ويتفتح الزهر

ويجود الثمر ويبتسم الولدان وتهفو قلوب العشاق إلى من تعلقت به النعمة وتجلّى فيه الجود .

وساعتها تخطئ أقدامنا العنوان وتخطئ ألسنتنا الاسم الذى تسبح له .. وننسى بارئ النعمة وننسى أنه لا أنا ولا أنت ولا هى لنا من الأمر شىء ..

وإنما كل ماحدث أن الله قال بلسان المظاهر .. ذات مساء فى لحظة تجلٍّ .. أنا موجود .. أنا بديع السماوات والأرض ..

ننسى كل هذا ونتوقف عند اللحظة ونتجمد عند القدّ والخد والخصر والنهد .. وننسى مصدر الجود فينسانا صاحب الفضل ويشيح عنا بوجهه الكريم فتسقط الأوراق وتذبل الأزهار ويصفر الاخضرار ويمتنع الإثمار ولا يبقى فى الحضن إلا عروق الخشب العجاف لا ماء فيها ولا رحمة ولا مودة ولا حنان .. فيذيقنا الله الهجر ونحن فى التوب ويرينا خيبة الأمل ونحن فى ذروة العمل ويختم لنا بالخذلان ونحن فى غفلة الهيمان .

وتلك هى صدمة العشاق التى أفاض فيها الشعراء وأطالوا وهى فى صميمها لفتة رحمة من الله يوقظ بها الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا الأهواء ونسوا المعشوق والمحبوب وصاحب الفضل .. والأصل كل الأصل .. الاسم الجامع لكل الكمالات الذى كان عين النعيم وعين اللحظة التى أشبهت الخلد وشاكلت الفردوس .

وذلك هو الأكل من الشجرة .

ثم الإهباط بعد الأكل من الشجرة .. والنزول من سماوات المعرفه الرحيبة إلى سجون اللذات وزنزانة اللحظات .

تلك هى القصة التى تتكرر كل يوم منذ آدم وحواء وكلما اجتمع ابن لآدم وبنت لحواء .

تتكرر الخيبة ويتكرر الخذلان .

ولا يعتبر عاقل ولا جاهل .

والذين أحبوا أو صدموا يعودون إلى حب جديد والى خيبة أمل جديدة ولا يشبع أهل الأمل من خيبة الأمل .

وكل مرة تزداد الغواشى على الحسّ ويضيق مجال الرؤية وتضيق الزنزانة على صاحبها ويغرق أهل الصبابة فى بحر الصبابة .

ولا ينجو من البحر إلاّ من عصم ربك .

إنما هو بحر الظمأ الذى يجرى بين ذراعى المرأة كلما شرب منه الشارب ازداد ظمأ وكلّما عبّ منه عبًّا احترق احتراقًا .. يظن أنه يرتوى ويبترد .. فلا يبترد أبدًا ولا يرتوى أبدًا .. ولا يشبع أبدًا .. ولا يسكن أبدًا .

إنما عنده هو السكن .

وبين يديه القرار والاستقرار .

صدق أبو العتاهية فى قوله :

طلبت المستقر بكل أرض   فلم أر لى بأرض مستقرا

فلا مقر لنا فى هذه الأرض ولا وطن لنا فيها وإنما وطننا فى بيت المعاد الذى جئنا منه عند شجرة الخلد حقًّا وليس عند شجرة الجوع والظمأ التى أكل منها آدم ومازلنا نحن أولاده نأكل منها فنزداد جوعًا على جوع ولا نعرف شبعًا ولا راحة .

إنما الحياة بجوعها .

وشجرة الأنوثة بربيعها وخريفها .

والزهور بتفتحها وذبولها .

والشمس بطلوعها وأفولها .

كلها رموز تتكلم بلسان الحال ..

بأنها كلها قصاصات وعينات وعبوات صغيرة تشير إلى عالم آخر فيه النماذج المثلى والكمالات والأصول لكل هذا الذى نرى أمامنا فى صندوق الدنيا .. وكأنما يضع لنا الطاهى قطرة فى ملعقة ويقول لنا .. ذوقوا .

والحكيم هو الذى يذوق ويقول .. الله .. ما أحلى الطهو .. يذوق فقط ولا يفكر فى أن يجلس ليأكل .. لأنه يعلم أن الدنيا مناسبة للتعرف .. وعينات للذواق .. وعبور سريع فى نفق أرضى من أنفاق المترو فيه صور ومعروضات .. وكل حظ الراكب لفتة هنا ولفتة هناك .

أما الجلوس للأكل والشروع فى مباشرة الحياة الحقة فذلك لن يكون إلّا بعد انتهاء الرحلة والخروج من النفق الأرضى إلى السطح حيث نجد فى انتظارنا نعيم الخلد والجنة التى عرضها السموات والأرض والحياة الجديرة بأن نحياها حقًّا .. حيث أرض الكمالات وعالم المثل .. وذلك حظ من اتقى وفهم وعرف .. وكان بينه وبين الله عمار وصلة وعهد .

أما من قطع حبل الاتصال وعاش حياة الانفصال ولم يعرف لذّة الوصال وانشغل عن الحقيقة بعالم الأوهام وتعلّقت همته بالصغار . فذلك حظه البقاء فى النفق المظلم ونصيبه الإبعاد والإهباط من نفق مظلم إلى نفق آخر أشدّ إظلامًا ولا نهاية .. فليس للبعد نهاية كما أنه ليس للقرب نهاية .. وليس لنعيم الله حدود كما أنه ليس لعذابه حدود .

ومن يتلفت حوله فى الدنيا ويتأمل عجائب صنعة الله وغرائب آياته يمكن أن يتصوّر كم يمكن أن يكون مذهلا مدهشا ذلك العالم الكامل عالم الملكوت الذى صنعه نفس الصانع ووعد به أحباءه .

إن عظمة الصنعة من عظمة الصانع .

وليس أعظم من الله .

فكذلك نعيمه وكذلك عذابه .

وأهل القلوب لا تجف لهم دموع من تصور يوم الجمع .. وساعة المصير .

وهم الباكون الراجفون الضارعون الداعون الراكعون الساجدون فى هذا السامر من الولائم الكاذبة على مائدة الدنيا حيث يعلم كل من يأكل أنه سوف يموت .. ومع ذلك يقتل الغافلون بعضهم بعضًا على اللقمة ويتنازعون على شربة الماء .

أولئك هم الصارخون فى الخلوات .

إلّهى .. ارزقنا .. خوفك ..

ضع الموت بين أعيننا .

فلا شيء يستحق البكاء سوى الحرمان منك ولا حزن بحق إلاّ الحزن عليك .. باطل الأباطيل وقبض الريح كل شيء إلّا وجهك .

أنت الحق .

وأنت مانرى من جمال حيثما تطلعت عين أو استمعت أذن أو حلّق الخيال .

لا إلّه إلّا أنت .

سبحانك .

إنى كنت من الظالمين .

مسرح العرائس

أشعر بالندم يا إلّهى حتى نخاع العظم من أنى ذكرت سواك بالأمس وهتفت بغير اسمك وطافت بخاطرى كلمات غير كلماتك .

سمحت لنفسى أن أكون مرآة للسراب ومستعمرة للأشباح .

جهلت مقامى ونزلت عن رتبتى وترجّلت عن فرسى الأصيلة لأركب توافه الأمور ولأمشى مع السوقة وأزحف على بطنى مع دود الأرض .

خدعنى شيطانى واستدرجنى إلى مسرح العرائس الذى يديره وآلّى تماثيل الطين والزجاج والحلى المزيفة .

استدرجنى إلى بيوت القماش وقصور الورق وقدمنى إلى ناس يبتسمون للمصلحة ويحبون للشهوة ويقتلون للطمع ويتزاوجون للتآمر .. رجال وجوههم ملساء مدهونة ونظراتهم خائنة ولمساتهم ثعبانية ونساء تغطيهن المساحيق فلا تبدو ألوانهن الحقيقية بشرتهن مشدودة ووجوههن

مكوية وخطواتهن حربائيّة وأيديهن تتسلّل إلى القلوب يسرقن كل شيء حتى الحقائق .

عالم جذاب كذاب يضوع بالعطور ويبرق بالكلمات .. عالم لزج معسول تغوص فيه الأرجل كما يغوص النمل فى العسل حتى يختنق بحلاوته ويموت بلزوجته ..

والأصوات فى هذا العالم كلها هامسة مبللة بالشهوة تتسلل إلى ما تحت الجلد وتخترق الضمائر وتأكل الإيمان من الجذور .

تذكرتك يارب وأنا أمشى فى هذا العالم فشعرت بالغربة والانفصال ولم أجد أحدًا أكلمه ويكلمنى وأفهمه ويفهمنى .. نبذونى كلهم ورفضونى كما نبذتهم ورفضتهم .. وأحسست بنفسى وحيدًا غريبًا مطرودًا .. ملقى على رصيف أبكى كطفل يتيم بلا أم .

وسمعت فى قلبى صراخا يناديك .

كانت كل خلية فى بدنى تتوب وتئوب وترجع وسمعتك تقول فى حنان .. لبيك عبدى ..

ورأيت يدك التى ليس كمثلها شيء تلتقطنى وتخرجنى من نفسى إلى نفسك .

واختفى ديكور القماش والورق وذاب مسرح الخدع الضوئية .

وعاد اللا شيء إلى اللا شيء ..

وعدت أنا إليك .

لا إلّه إلّا أنت .

سبحانك

ولا موجود سواك

القرب منك يضيف .

والبعد عنك يسلب .

لأنك وحدك الإيجاب المطلق .

وكل ما سواك سلب مطلق .

علمت ذلك بالمكابدة وأدركته بالمعاناة وعرفته بالدم والعرق والدموع ومشوار الخطايا والذنوب وأنا أقع فى الحفر وأتعثر فى الفخاخ .. وكلما وقعت فى حفرة شعرت بيدك تخرجنى بلطف وكلما أطبق علىّ فخٌّ رأيتك تفتح لى سبيلا للنجاة .. وكلما وضعونى فى الأغلال وأحكموا علىّ الوثاق شعرت بك فى الوحدة والظلمة تفكّ عنّى أغلالى وتربت على كتفى فى حنان وإلهامك يهمس فى خاطرى .. أما كفاك ما عانيت ياعبدى .

أما اتعظت .. أما اعتبرت .. أما جاء اليوم الذى تثبت فيه قدمك وتستقر خطاك على الطريق .

فأقول باكيًا .

سبحانك يارب وهل هناك تثبيت إلّا بك وهل هناك تمكين إلّا بإذنك .

أنت وحدك الذى أصلحت الصالحين وثبت الثابتين ومكّنت أهل التمكين .

تعطى لحكمة وتمنع لحكمة ولا تُسأل عما تفعل .

شفيعى إليك صدقى .

وعذرى إليك حبّى للحق .

وذريعتى إلى عفوك رغبتى فى الخير .

فمن خطيئاتى نبتت الحكمة كما تنمو أزهار الياسمين من الأرض السبخة .

ومن دموع ندمى علمت الناس فصدقونى حينما كلمتهم لأنهم رأوا كلماتى مغموسة بدمى ومن عثراتى وسقطاتى أضأت مصباحا هاديًا يجنّب الناس العثرات .

وكلّ من عبر طريقى قلت له كلمة صدق ودللته على السلامة .

ربما ما أتيت الذنوب جرأة منى عليك ولا تطاولا على أمرك وإنما ضعفًا وقصورًا حينما غلبنى ترابى وغلبتنى طينتى وغشيتنى ظلمتى .

إنما أتيت ما سبق فى علمك وما سطرته فى كتابك وما قضى به عدلك .

رب لا أشكو ولكن أرجو .

أرجو رحمتك التى وَسِعَت كل شيء أن تسعنى .

أنت الذى وَسِع كرسيُّك السموات والأرض .

لا شيء يساوى الحرية

حينما رفع النبى يوسف أكفَّ الدعاء لربّه مستنجدًا من غواية النسوة قائلاً :

(ربّ السجن أحبّ إلىّ مما يدعوننى إليه) .

كان يطلب حريّة ولم يكن يطلب سجنًا .

والمسألة نسبية .. فما يحصل عليه من حرية فى زنزانة وهو مقيّد اليدين والقدمين أكثر بكثير مما يتبقى له من حرية ساعة شهوة .

فحينما تجمح الشهوة لا تبقى لصاحبها حرية فهو لا يرى إلّا على مرمى ساقين ولا يسمع إلّا على مرمى شفتين ولا يعى حكمة ولا يبصر عاقبة ولا يحفظ عهدًا ولا يرعى واجبًا .. وهو أعمى أصم مقيّد الذراعين والساقين إلى حركة آلية وفعل لا معقول كل هرموناته ودمه وفكره وحسّه ومواهبه فى خدمة هذه اللحظة اللامعقولة من الإشباع والفناء الذى يشبه السقوط فى هوّة اللاشىء ..وذلك هو منتهى السجن ومنتهى

استنفاد الطاقة واستفراغ القوة وإنهاك العزم وتبديد الهمّة .. ثم لا يكون بعد ذلك إلّا الخمول والبلادة والاسترخاء والرغبة فى النوم والرغبة فى عدم التفكير فى شىء .

تلك الزوبعة التى تعصف بالدم وتطيش بالعقل وتذيب المفاصل وتأسر الجسد هى ذروة العبودية .

ولهذا قال النبى يوسف صارخًا .

ربّ السجن أحبّ إلىّ من هذا الخضوع لهؤلاء النسوة .. فالزنزانة ولا شك أرحب وأوسع من قبضة شهوة امرأة حينما تتسلل إلى النخاع وتعتصر المخّ وتحجب العينين وتسدّ الأذنين وتغلق منافذ القلب فلا يعود شىء فى الكون يسمع إلّا لهاث أنفاسها .. فكأنما أصبحت هى المحراب والصنم والقبلة .. ومائدة القرابين .

والسجن هنا منتهى الحرية بالنسبة لهذا القيد الشامل المطلق .. وهو أحب ألف مرة لأىّ رجل فى كمال وعقل النبى يوسف يريد أن يصعد ويحلق إلى السموات فلا شىء يساوى الحرية أبدًا .

وأىّ لذة وأىّ مقابل فورىّ مادى أو حسّى لا يساوى عقلاً طليقًا وخيالاً محلقًا وفؤادا مرفرفًا ووجدانًا طائرًا وفكرًا مهاجرًا وقلبًا مسافرًا وأقدامًا ساعية لا تحدّ حركتها حدود .

نعم .. لا شىء يساوى الحرية .

وأحسن استثمار للحرية أن تبذلها لوجه الله فتجعلها فى خدمة الحق

والعدل والخير .. فالعبودية للخالق تحررك من العبودية للخلق وتخلع الحاكمية عن كل الذين حكموك فلا يعود يحكمك أحد ولا يعود يحكمك شىء .. بل تصبح أنت بحكم الخلافة عن الله حاكما على الكلّ .. وتصبح لكلماتك ربانية على الجميع .. ويطيعك البرّ والبحر والريح وتنقاد لك الشعوب ويستمع إليك التاريخ .

كيف تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟

يقول سادتنا الأكابر :

منذ أن تفتح عينيك لتصحو حتى تغلقهما لتنام لا تعلّق همّتك بأمر من الأمور الدون .

لا تنم على غلٍّ ولاتَصْحُ على شهوةٍ ولا تسع إلى طمع ولا تسابق إلى سلطة وإنما أجعل همّك واهتمامك فى الخير والبرّ والحقّ والصدق ، والمروءة والمعونة قاصدًا وجه ربّك على الدوام .

حاول أن يكون فعلك مطابقًا لقولك وسلوكك مطابقًا لدعوتك .. فإذا غلبتك بشريتك وهزمك هواك فى لحظة .. لا تيأس وإنما استنجد واستصرخ ربّك .. وقل : الغوث يارب .. يقل لك لبيك عبدى ويخرجك بيده من ظلمة نفسك إلى نور حضرته .

فإنك إن كنت أحد عمّال الله فى الأرض وأحد سفرائه إلى قلوب الناس .. فإنه سوف يرحمك إذا أخطأت ويغفر لك إذا أسأت ويعيدك إلى الطريق إذا انحرفت .. وسوف يرعاك ويتولّاك لأنك من

استنفاد الطاقة واستفراغ القوة وإنهاك العزم وتبديد الهمّة .. ثم لا يكون بعد ذلك إلّا الخمول والبلادة والاسترخاء والرغبة فى النوم والرغبة فى عدم التفكير فى شيء .

تلك الزوبعة التى تعصف بالدم وتطيش بالعقل وتذيب المفاصل وتأسر الجسد هي ذروة العبودية .

ولهذا قال النبي يوسف صارخًا .

ربّ السجن أحبّ إلى من هذا الخضوع لهؤلاء النسوة .. فالزنزانة ولا شك أرحب وأوسع من قبضة شهوة امرأة حينما تتسلل إلى النخاع وتعتصر المخّ وتحجب العينين وتسدّ الأذنين وتغلق منافذ القلب فلا يعود شيء فى الكون يسمع إلّا لهاث أنفاسها .. فكأنما أصبحت هى المحراب والصنم والقبلة .. ومائدة القرابين .

والسجن هنا منتهى الحرية بالنسبة لهذا القيد الشامل المطلق .. وهو أحب ألف مرة لأىّ رجل فى كمال وعقل النبي يوسف يريد أن يصعد ويحلق إلى السموات فلا شيء يساوى الحرية أبدًا .

وأىّ لذة وأىّ مقابل فورىّ مادى أو حسّى لا يساوى عقلاً طليقًا وخيالاً محلقًا وفؤادا مرفرفًا ووجدانًا طائرًا وفكرًا مهاجرًا وقلبًا مسافرًا وأقدامًا ساعية لا تحدّ حركتها حدود .

نعم .. لا شيء يساوى الحرية .

وأحسن استثمار للحرية أن تبذلها لوجه الله فتجعلها فى خدمة الحق

والعدل والخير .. فالعبودية للخالق تحررك من العبودية للخلق وتخلع الحاكمية عن كل الذين حكموك فلا يعود يحكمك أحد ولا يعود يحكمك شيء .. بل تصبح أنت بحكم الخلافة عن الله حاكما على الكلّ .. وتصبح لكلماتك ربانية على الجميع .. ويطيعك البرّ والبحر والريح وتنقاد لك الشعوب ويستمع إليك التاريخ .

كيف تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟

يقول سادتنا الأكابر :

منذ أن تفتح عينيك لتصحو حتى تغلقهما لتنام لا تعلّق همّتك بأمر من الأمور الدون .

لا تنم على غلٍّ ولا تَصْحُ على شهوةٍ ولا تسع إلى طمع ولا تسابق إلى سلطة وإنما أجعل همّك واهتمامك فى الخير والبرّ والحقّ والصدق والمروءة والمعونة قاصدًا وجه ربّك على الدوام .

حاول أن يكون فعلك مطابقًا لقولك وسلوكك مطابقًا لدعوتك .. فإذا غلبتك بشريتك وهزمك هواك فى لحظة .. لا تيأس وإنما استنجد واستصرخ ربّك .. وقل : الغوث يارب .. يقل لك لبيك عبدى ويخرجك بيده من ظلمة نفسك إلى نور حضرته .

فإنك إن كنت أحد عمّال الله فى الأرض وأحد سفرائه إلى قلوب الناس .. فإنه سوف يرحمك إذا أخطأت ويغفر لك إذا أسأت ويعيدك إلى الطريق إذا انحرفت .. وسوف يرعاك ويتولّاك لأنك من

جنده وحاشيته وخاصته .

ولا تيأس مهما بلغت أوزارك ولا تقنط مهما بلغت خطاياك .. فما جعل الله التوبة إلّا للخطاة وما أرسل الأنبياء إلّا للضالين وما جعل المغفرة إلّا للمذنبين وما سمَّى نفسه الغفار التوّاب العفُوّ الكريم إلّا من أجل أنك تخطئ فيغفر .

جدّد استغفارك كلّ لحظة تجدّد معرفتك وتجدّد العهد بينك وبين ربك وتصل ما انقطع بغفلتك .

واعلم أن الله لا يملّ دعاء الداعين .. وأنه يحب السائلين الطالبين الضارعين الرافعي الأكفّ على بابه .. وإنما يمقت الله المتكبر المستغنى المختال المعجب بنفسه الذى يظن أنه استوْفى الطاعة وبلغ غاية التقوى وقارب الكمال .. ذلك الذى يكلم الناس من علٍ ويصافحهم بأطراف الأنامل .

ثم بعد التوبة والاستغفار والتخلّى عن الذنوب والتبرؤ من الحول والطول .. يأتى التحبّب والتقرّب والتخلّق والتحقّق .

حاول أن تتحلى بأخلاق سيدك .. فإذا كان هو الكريم الحليم الصبور الشكور العفو الغفور .. فحاول أن يكون لك من هذه الصفات نصيب .

فإذا غالبتك نفسك الأمارة .. اسجد وابك وتضرّع وتوسّل .. وقل بين دموعك :

يا من عطفت على الطين فنفخت فيه من جمالك وكمالك .

يا من أخرجت النور من الظلمة .

يا من تكرّمت على العدم

أخرجنى من كثافتى وحرّرنى من طينتى وخلصنى من ظلمتى وقوِّنى على ضعفى وأعنّى على نفسى .. فلا أحد سواك يستطيع أن يفعل هذا .. أنت ياصانعى بيديك .

ثم يقول سادتنا الأكابر :

إن الجهاد يطول فلا تتعجل الثمر .. فكلما عظمت الأهداف طال الطريق .. فلا تبرح الباب .. وأطل السجود .. وأدم البكاء .. فإنك لا تطلب نيشانًا أو جائزة وإنما تطلب وجْه صاحب العرش العظيم .

تطلب ربّ السموات .

تطلب العزيز الذى لا يرام .

وذلك مطلب لا يبلغه طالبٌ إلّا بعد أن يبتلى ويمتحن ويتحقق إخلاصه .. ويشهد الملائكة منزلته ويرى الملأ الأعلى بينته .

فكيف يصحب الملائكة المقربين إلّا النفر الكرام الذين تخلّقوا بأخلاقهم .

وكيف تصعد إلى السماوات إلّا بعد أن تلقى بمتاعك الأرضى وأثقالك .. ثم تلقى بنفسك الحيوانية من حالق .. ثم تلقى بغرورك وأنانيتك وشهواتك وأطماعك .. وتتجرّد من دواعى بشريتك .. وتعود

كما خلقك الله نورًا من نوره .

حينئذ تبلغ الحرية حقًّا .. وتشاكل الأبرار والشهداء والقديسين والملائكة .. فتسمعهم ويسمعونك وتكلّمهم ويكلّمونك .

وذلك معراج يحتاج إلى عمر بطوله وإلى زادٍ من التقوَى والمحبّة والطاعة وصبر على البلاء ولا يقدر على هذا إلّا آحاد .

ولهذا خلقت الجنة .

ولهذا كانت الأكثرية ترتع فى النار من الآن .

دعاء العبد الخطاء

إلّهى ..

إنك ترى نفسى ولا يراها سواك .

تراها كالبيت الكبير الذى تصدّعت منه الجدران وتهاوت السقوف وانكفأت الموائد .

بيتًا مهجورًا يتعاوَى فيه الذئاب ويلهو فيه القردة وتغرد العصافير .

ساعةً تتلألأ فيه الأنوار وتموج فيه أشعة القمر .

وساعة أخرى مظلمًا مطموسًا محطم المصابيح تسرح فيه العناكب .

مرةً تحنو عليه يد الربيع فتتفتح الزهور على نوافذه وتصدح البلابل وتغزل الديدان الحرير وتفرز النحلات الطنانة العسل .

ومرّة أخرى يأتى عليه الزلزال فلا يكاد يخلف جدارًا قائمًا لولا ذلك الحبل الممدود الذى يتزل بالنجدة من سماوات رحمتك .

حبل لا إلّه إلّا أنت سبحانك .

أنت الفاعل سبحانك وأنت مُجرى الأقدار والأحكام .. وأنت الذى امتحنت وقويت وأضعفتَ وسترتَ وكشفت .. وما أنا إلّا السلب والعدم .. وكلّ توفيق لى كان منك وكلّ هداية لى كانت بفضلك وكلّ نور كان من نورك .. ما أنا إلّا العين والمحل وكلّ ما جرى علىّ كان استحقاقى وكلّ ما أظهرت فىّ كان بعدلك ورحمتك .. ما كان لى من الأمر شىء .

وهل لنا من الأمر شىء !؟

مولاى .. يقولون إن أكبر الخطايا هى خطايا العارفين .. ولكنى أسألك يارب أين العارف أو الجاهل الذى استطاع أن يسلم من الفتنة دون رحمة منك .. وأنت الذى سوّيت نفوسنا وخلقتها ووصفتها بأنها (لأمّارةٌ بالسوءِ إلّا مَا رحِم ربّى) .

وأين من له الحول والقوة بدونك .. وهذا جبريل يقول لنبيك لا حوْل من معصية الله إلّا بعصمة الله ولا قوّة على طاعة الله إلّا بتمكين الله .

وهل استعصم الذين استعصموا إلّا بعصمتك وهل تاب الذين تابوا إلّا بتوبتك .. وهل استغفروا إلّا بمغفرتك .

إلهى .. لقد تنفست أوّل ما تنفست بك ونطقت بك وسمعت بك وأبصرت بك ومشيت بك واهتديت بك .. وضللت حينما ضللت عندما خرجت عن أمرك .

سألتك يارب بعبوديتى أن ترفع عنّى غضبك .. فها أنا ذا وقد خلعت عن نفسى كلّ الدعاوى وتبرأت من كل حوْلٍ وطوْلٍ ولبست ثوْب الذل فى رحاب قدرتك .

إنك لن تضيعنى وأنا عبدك .

لن تضيع عبدًا ذلّ لربوبيتك وخشع لجلالك .

وكيف يضيع عبدٌ عند مولًى رحيم فكيف إذا كان هذا المولى هو أرحم الراحمين .

ربّ اجذبنى إليك بحبْلك الممدود لأخرج من ظلمتى إلى نورك ومن عدميّتى إلى وجودك ومن تفرّق إلى جمعيّتك ومن هوانى إلى عزّتك ..

فأنت العزيز حقًّا الذى لن تضرك ذنوبى ولن تنفعك حسناتى .

إن كلّ ذنوبنا يارب لن تنقص من ملكك .

وكلّ حسناتنا لن تزيد من سلطانك .

فأنت أنت المتعال على كل ماخلقتَ المستغنى عن كلّ ما صنعت .

وأنت القائل :

هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى .

وأنت القائل على لسان نبيك :

(ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) .

فها أنا ذا أدعوك فلا أكفّ عن الدعاء .. فأنا المحتاج .

أنا المشكلة .. وأنا المسألة .

أنا العدم وأنت الوجود فلا تضيعنى .

عاونّى ياربّ على أن اتخطّى نفسى إلى نفسى . أتخطى نفسى الأمّارة الطامعة فى حيازة الدنيا إلى نفسى الطامعة فيك فى جوارك ورحمتك ونورك ووجهك .

لقد جربت حيازة كل شيء فما ازددت إلّا فقرًا وكلما طاوعت رغائبى ازدادت جوعًا وإلحاحًا وتنوعًا .

حينما طاوعت شهوتى إلى المال ازددت بالغنى طمعًا وحرصًا وحينما طاوعت شهوتى إلى النساء ازددت بالإشباع عطشًا وتطلعًا إلى التلوين والتغيير .. وكأنما أشرب من ماء مالح فأزداد على الشرب ظمأً على ظمأ .

وما حسبته حرية كان عبودية وخضوعًا للحيوان المختفى تحت جلدى ثم هبوطًا إلى درك الآلية المادية وإلى سجن الضرورات وظلمة الحشوة الطينية وغلظتها .

كنت أسقط وأنا أحسب أنى أحلق وأرفرف .

وخدعنى شيطانى حينما غلّف هذه الرغبات بالشعر وزوقها بالخيال الكاذب وزينها بالعطور وزفّها فى أبّهة الكلمات وبخور العواطف ، ولكن صحوة الندم كانت توقظنى المرّة بعد المرّة على اللا شيء والخواء .

إلّهى .. لم تعد الدنيا ولا نفسى الطامعة فى الدنيا ولا العلوم التى تسخر لى هذه الدنيا ولا الكلمات التى احتال بها على هذه الدنيا .. مرادى ولا بضاعتى .

وإنما أنت وحدك مرادى ومقصودى ومطلوبى فعاونّى بك عليك وخلصنى بك من سواك وأخرجنى بنورك من عبوديتى لغيرك فكل طلب لغيرك خسار .

أنت أنت وحدك .. وما أرتضى مشوار هذه الدنيا إلّا لدلالة هذا المشوار عليك وما يبهرنى الجمال إلّا لصدوره عنك وما أقصد الخير ولا العدل ولا الحرية ولا الحق إلّا لأنها تجلّيات وأحكام أسمائك الحسنى يامن تسمّيت بأنك الحق .

ولكن تلك هجرة لا أقدر عليها بدونك ونظرة لا أقوى عليها بغير معونتك .. فعاونّى واشدد أزرى .. فحسبى النية والتوجّه والمبادرة فذلك جهد الفقير .. فليس أفقر منى .. وهل بعد العدم فقر .. وقد جئت إلى الدنيا معدمًا وأخرج منها معدمًا وأجوزها معدما .. زادى منك وقوّتى منك ورؤيتى منك ونورى منك .

واليوم جاءت الهجرة الكبرى التى أعبر فيها بحار الدنيا دون أن أبتل وأخوض نارها دون أن أحترق .. فكيف السبيل إلى ذلك دون يدك مضمومة إلى يدى .

وهل يدى إلّا من صنع يدك ؟ .. وهل يدى إلّا من يدك ؟!

وهل هناك إلّا يد واحدة ؟

لا إلّه إلّا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

سبحانك لا أرى لى يدًا .

سبحانك لا أرى سواك .

لا إله إلّا الله .

لا إلّه إلّا الله حقًّا وصدقًا .

وذاتك هى واحدة الحسن .

الحسن كله منها .

والحب كله لها .

ويدك هى واحدة المشيئة .

الفعل كله منها والقوة كلها بها وإن تعدّدت الأيدى فى الظاهر وظن الظانون تعدّد المشيئات .. وإن تعدّد المحبون وتعدّدت المحبوبات وظنّ كلّ واحد أنه يقبّل يد محبوبته .. فما يقبّل الكلّ إلّا يدك دون أن يدروا .. سبحانك لا سواك .. ما يركع الكلّ إلّا على بابك وما يلثم الكلّ إلّا أعتابك .. مؤمنون وكفرة .. وإن ظن الكافر أنه يلثم دينارًا أو يقبّل شفة أو خدًّا فإنما هى أيادى رحمتك أو أيادى لعنتك هى ما يلثم ويقبل دون أن يدرى .

وإنما هى أسماء وأفعال وأوصاف .

والمسمى واحد .

والفاعل واحد .

والموصوف واحد .

لا إلّه إلّا هو .

لا إلّه إلّا الله .

الحمد له فى الأوّل والآخر .

رُفعت الأقلام وطُويت الصحف وانتهت الكلمات .

الفهرس

صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٤ / ٣١١٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٨٤٧-٧	ISBN

١ / ٨٤ / ٩١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)